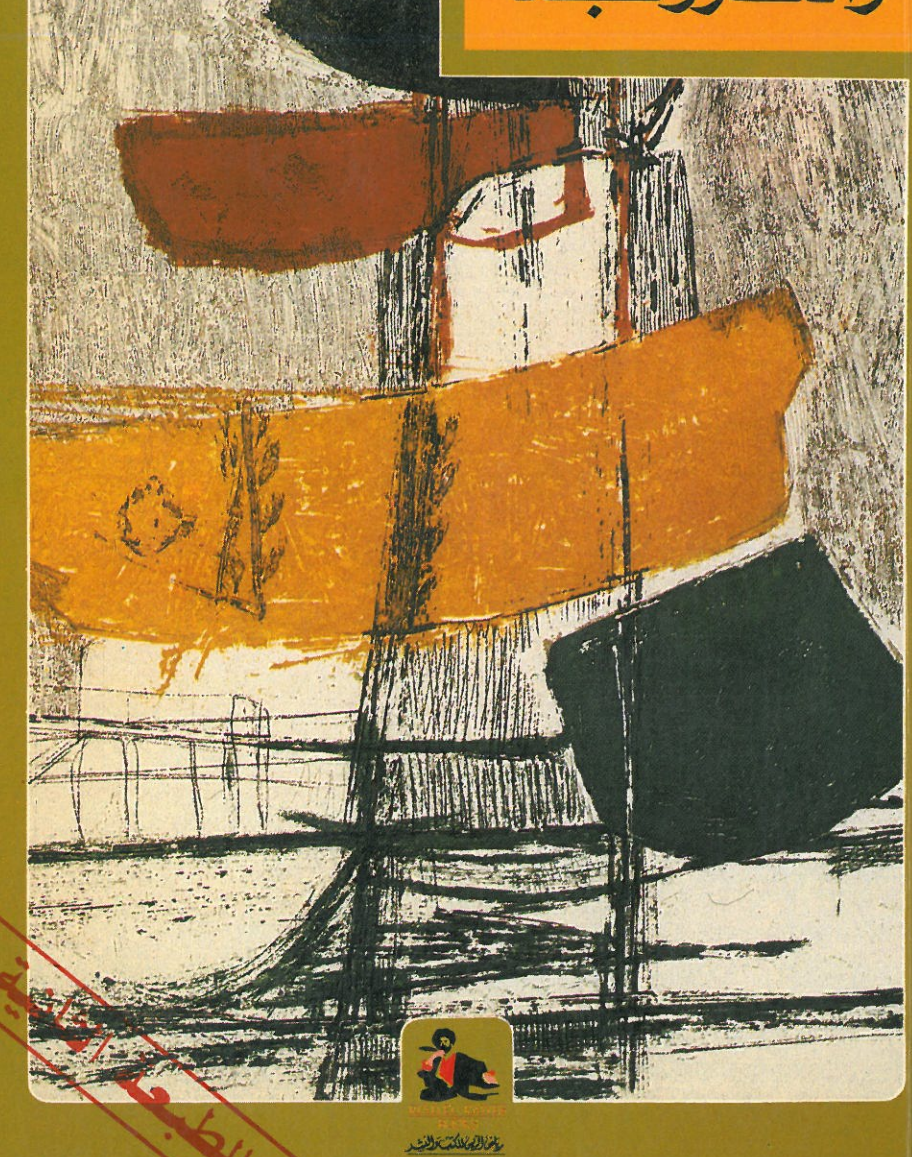


سلسلة
قضايا راهنة

رياض نجيب الريّس

المسيحيون والعروبة



الطبعة الثانية

RIAD EL-RAYYES BOOKS

رياض الريس للكتب والنشر

رياض نجيب الريّس

المسيحيون والعروبة

مناقشة في المارونية السياسية والقومية العربية



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر
56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

CHRISTIANS AND ARAB NATIONALISM

by

RIAD N. EL- RAYYES

Second Published in the United kingdom in 1991
Copyright © Riad EL - Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge, London Sw1x 7NJ

British Library Cataloguing in Publication Data
El-Rayyes, Riad
Christians and Arab nationalism
1. Arab countries. Nationalism
I. Title
320.5'4'09174927

ISBN 1 - 869844 - 32 - 7

Photosetting by: Riad El–Rayyes Books Ltd., London

الطبعة الاولى: ١٩٨٨
الطبعة الثانية: كانون الثاني/ يناير ١٩٩١

محتويات الكتاب

مقدمة

رياح البوار

«إذا ذُلَّ العرب ذُلَّ الاسلام»

ـ حديث شريف ـ

في الزمان العربي الذي اغتال فيه النفاق كل شيء، واحتمى الارهاب في كنفه وتعلق الناس العاديون باهدابه وقضت السياسة على البقية الباقية من الأفكار الواعدة ودمرت الحروب العربية بقايا الاحلام الحية، لم يعد ممكناً الاستدارة من مواقف الذل العديدة الى موقف عز واحد.

في هذا الزمان العربي الرديء، أصبح الانسان العربي القومي الأصيل غريباً فيه عن أورشليم بعد أن انهارت جدرانها كما انهارت من قبل جدران أريحا. في هذا العصر غير المضيء أصبح الحديث في البديهيات الفكرية والسياسية أمراً ضرورياً، بعد أن اغتالت القطرية الضيقة جميع الأعمال القومية وقضت الطائفية المتعصبة على كل الاسس الوطنية وفضحت القبلية شخصية المواطن العربي وخلطت بين هويته الأساسية ومطامعه المرحلية. وبات العالم العربي مجموعة من حفلات الكوكتيل تقرأ فيها معلقات المديح للأقل موهبة والأقل أصالة والأقل خبرة والأقل جرأة ـ بل الأقل وطنية.

أما الأكثر نفاقاً والأسمك جلداً والأكبر إمكانية في إراقة ماء الوجه، فتنشر صوره في الصحف وتلصق على الجدران ويمنح الأوسمة وينال حصة السبع من المغانم. ولم تعد المصطلحات الوطنية العادية تعني شيئاً لأبناء جيل عربي كامل. ولم تعد جدران أريحا تحتاج الى من يدور حولها سبع مرات أو سبعة أيام أو سبع سنوات لتنهار. فالرب لم يعد معنا وأورشليم لم تعد أورشليم ـ القدس العربية خاصتنا.

لقد أحاط ماسونيو الطائفية على اختلاف مللهم، ودعاة الاقليمية على تعدد إتجاهاتهم، ومحترفو التعصب على تنوع أحقادهم، بكل تراث الفكر القومي العربي على امتداد هذا القرن، وأمعنوا فيه طعناً وتمزيقاً وتشويهاً وتحريفاً حتى نسينا تبجحنا الثقافي الذي تراكم لنا عبر تيارات التاريخ العربي كله. نسينا زكي الارسوزي وساطع الحصرى وانطون سعادة وميشال عفلق وقسطنطين زريق وجورج حبش وعشرات غيرهم من كتاب الفكر القومي وملهمي حركاته، كما نسينا من قبلهم رشيد رضا وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ـ وأهمهم عبد الرحمن الكواكبي. وإذا نحن، منذ أن توالت الهزائم العربية وتراكمت الانهيارات النفسية، في جنازة كبيرة كثر المشيعون فيها حتى نسوا من هو ذلك الانسان العربي المسجى بين أكوام الورود الاصطناعية التي

تغطيه، ومن اجل اي شيء مات. رضي القتيل ولم يرض القاتل.

أمام هذا الزحف الارهابي، سقط الفكر القومي العربي على اعتاب الاحباط السياسي الذي يعاني منه جيلنا العربي الآن. وإذا التباهي بالمواقف الأكثر طائفية أو قطرية أو اقليمية او قبلية، هي طريق المزايدة السياسية الرائجة. وأصبح البوار هو الكلمة السائدة. وانتشر مع البوار جو الحزن والخيبة. وعندما استيقظت كل الاحلام القومية من سباتها اكتشفت أنها مجرد كوابيس عشائرية ودينية واقليمية. وكأن الناس كانت نياماً خارج أسوار اورشليم التي سقطت.

وأصبح الحديث في القومية العربية والوحدة العربية والديمقراطية والبرلمانية والحزبية ثقيلاً على الآذان، مستهجنا من أصحاب الثروات ومتعمشقي السلطة وأذناب الحكام. وشجعت أكثر السلطات الحاكمة مؤامرة الصمت على ضياع الفكر القومي. وانهالت الكتابات الفكرية الدعيّة والأمية والجاهلة لتخوض الحروب الصليبية من جديد، أو معركة صفين وكأنها ما زالت مستمرة الى اليوم، أو معارك الدويلات الطائفية وكأن الانتداب لم يغادر بلادنا بعد. واتضح من هذه الكتابات وكأن فكرنا فتات من هنا وهناك، وتراثنا معلومات سطحية تجمع من بقايا موائد المقاهي، يجترها أنصاف المثقفين ويتبجح بها الاميون. وسقطنا في الهزالة.

* * *

عند هذا المفترق لا بد وأن اتطرق الى علاقتي الشخصية بموضوع هذا الكتاب، لارتباطه المباشر بلبنان وعملي في الصحافة اللبنانية. لقد كان لي شرف ومتعة احتراف العمل في الصحافة اللبنانية حوالي عشرين سنة، منذ أن حلمت أن الصحافة هي مهنتي وطريقي وقدري. لكن قبل ذلك كله كنت من نتاج ذلك الجيل العربي الذي جاء لبنان وهو في وهجه وعنفوانه، فدخل مدارسه وتخرّج من جامعاته وانضم الى أحزابه وتعلّم السياسة في مقاهيه وتنشّق حريته وتسكّع في مكتباته، انما الأهم من ذلك كله انه قرأ صحافته وعرف من خلالها ان للرأي أكثر من وجه وان للفكر حرمة هي في اتساع العقل الانساني، وان حرية الانسان هي في حرية رأيه وفكره.

لم يتعلم هذا الجيل العربي في لبنان ان حرّية الرأي والفكر ترف. لكنه تعلم ان يشكل مجموعة من الأصدقاء اللبنانيين من مختلف المدارس السياسية والمناهج الفكرية على امتداد قوس الحرية اللبناني في حينه، ومن دون أن يعرف أو حتى يسأل عن هويته الفكرية، فما بالك بالدينية.

ولم يكن في الواقع لهذا الجيل العربي الذي جاء لبنان من أقطار عربية

مختلفة أي وطن آخر غير لبنان. ولم يبدأ العربي في التساؤل أو البحث عن وطنه الأصلي إلّا عندما ضاق به لبنان في سنوات الحرب، وهزته فاجعة ضياعه كوطن ورفضه كمواطن. ولم يعد أبناء ذلك الجيل العربي الى بلدانهم كما يتطلب منطق التاريخ عندما صدمتهم شراسة الواقع اللبناني، إنما بدأوا هجرة جديدة في مجاهل دول الخليج واوروبا واميركا، لأن لبنان علّمهم ان الوطن هو حيث الأمان والحرية. ودخل ذلك الجيل في دوامة تيه أربعين سنة جديدة.

كان من الطبيعي لواحد من جيلي أن يأتي لبنان في طفولته، فيدخل مدارسه ويتعلم في كلياته ويعيش صباه وشبابه في كنف صداقاته اللبنانية. ولم يكن لدينا أي شعور في شبابنا بالتمايز «القطري» بيننا نحن غير اللبنانيين وبين اللبنانيين. كان التطلع خارج الحدود اللبنانية أمراً طبيعياً، وكان التقوقع داخل الحدود اللبنانية أمراً انعزالياً. كانت بيروت وقتها امتداداً حقيقياً لدمشق، وكان الوصول الى الشام أسهل من الوصول الى طرابلس. وكانت الحزبية السورية ـ اللبنانية حزبية أشخاص عاشوا معارك الانتداب معاً وسعوا الى الاستقلال معاً. كانت العلاقة طبيعية. وكان «الميثاق الوطني اللبناني ـ العربي» في عزه.

كبر هذا الجيل العربي في قلب الأحداث اللبنانية، وأخذ يتعرف على مزالق «ديمقراطية» الحياة السياسية، في الوقت الذي أطاح حكم الرجل الواحد أو الحزب الواحد بمعالم التعددية في أقطار العالم العربي. واكتشف هذا الجيل انه بالرغم من كل هذه المزالق، ما زال قادراً على تفضيل لبنان فيها على عالم عربي من دونها. كان عبق الحرية، بنسبتها وضبابيتها، يشده الى لبنان.

لكن هذا الجيل العربي لم يكن غافلاً عن قصور النظام اللبناني وضحالة بعض الفكر السياسي اللبناني وشراسة العصبية القبلية اللبنانية وعمق التعصب الطائفي اللبناني المختبئة كلها وراء مظاهر الليبيرالية السطحية. كان يعرف أن ذلك كله يحمل في طياته أسباب الحساسية المفرطة التي يتمتع بها الفرد اللبناني تجاه «الغرباء» الى درجة الشوفينية، على عكس نظامه السياسي الذي أتاح دائماً وعبر تاريخه كله «للغرباء» التدخل في شؤونه. وأدركت من دون أي عُقد عند بدء ممارستي الحياة العملية في لبنان بأنني واحد من هؤلاء «الغرباء».

كان هذا كله قبل أن يستفحل داء الانغلاق القطري والتشرذم الاقليمي والتعصب المذهبي وغرور المال وبطر الشهوة السلطوية في أرجاء العالم العربي، وقبل ان تتساقط أوراق الهوية القومية العربية الواحدة أمام تراجع السنوات العشر الأخيرة على الأقل.

لكنني كنت أحد «الغرباء» المميزين. لم أكن هارباً من اضطهاد. ولم أكن لاجئاً سياسياً. ولم أكن ابحث عن عمل. كنت صاحب مهنة لم يكن مسموحاً

بممارستها إلّا في لبنان. وكان لبنان نفسه في ذلك الزمان يعتز بأنه الوطن العربي الوحيد القادر على احتضان صحافة حرة، أو فيها شيء من الحرية ـ بمقاييس تلك الفترة. لم يكن هناك خداع نظر. كانت التقاليد الصحافية اللبنانية في حينه استمراراً للصحافة العربية التي نشأت في مصر وسورية وفلسطين منذ بداية هذا القرن. كانت الأرض الصحافية محروثة ومؤهلة للغرس الفكري.

كان سعيد فريحة وكامل مروة وجورج نقاش ورياض طه امتداداً تراثياً لحلمي الصحافي الذي بدأ في دمشق وانتهى في بيروت، كذلك كان غسان تويني. لذلك لم يكن غريباً ولا مستهجناً أن يعمل واحد مثلي عند ومع هؤلاء في البلد الذي ربيت وترعرعت وتعلمت وصادقت وأحببت فيه. وقُبِلْتُ في هذه المهنة من دون السؤال عن جنسيتي، لأنني كنت امتداداً لهذا التقليد وذلك التراث. وكانت الصحافة اللبنانية تضم في مطلع الستينات عدداً لا بأس به من السوريين والفلسطينيين العاملين فيها. كان ذلك امراً طبيعياً. وكنت من بين القلائل غير اللبنانيين الذين عملوا في الصحافة اللبنانية ولم يتلبننوا بالجنسية. لا أنا سعيت إليها جدياً ولا هي سعت الي. لقد كان هناك حاجز نفسي يقول لي ان هذه الهوية لن تدخلني قط الى الملكوت اللبناني. فأنا لا أملك شروطه.

واتخذت قراراً واعياً امليته على نفسي والتزمت به طوال سنوات عملي في الصحافة اللبنانية هو أن اتطرق في كتابتي الى كل شؤون الدنيا الا الشأن السياسي اللبناني. لذلك صرت أعرف تقريباً وعلى امتداد السنوات أكثر سياسيي العالم العربي من رئيس بلدية الشارقة الى محافظ صنعاء الى مختار أربد، من دون ان أعرف أكثر من سياسي لبناني واحد. وكنت قنوعاً بذلك لأنني لم أكن فريقاً ولا طرفاً في الشأن اللبناني، بينما كنت وما زلت فريقاً وطرفاً في الشأن العربي العام.

واليوم بعد اكثر من ثلاث عشرة سنة عجاف من الغربة عن لبنان، وبعد احداث لبنان المريرة والدامية خلال هذه السنوات، تحول لبنان من شأن خاص الى شأن عربي عام. لم تعد الكتابة في الشؤون اللبنانية تدخلا في خصوصيات العائلة اللبنانية أو القبيلة اللبنانية أو الطائفة اللبنانية. أصبح لبنان بماضيه وحاضره ومستقبله، كما كان أصلا عبر تاريخه، نقطة تحول أساسية في مجرى أحداث العالم العربي، يعني الكل ويفرض على الكل وخاصة على امثالي رأياً وموقفاً.

* * *

«المسيحيون والعروبة»، كتاب يحاول ان يناقش هذا الوضع عن طريق

طرح هذا الموضوع الخطير على أكبر عدد ممكن من المهتمين في القضايا القومية، لعله يفتح الباب على مصراعيه أمام عودة الروح الى الوحدة العربية والى الدعوة للقومية العربية، بحيث لا يعود التبشير بهما عملا محفوفاً بالمخاطر، بل عملاً فكريا راقياً يحمل الاجتهاد بكل احتمالات الخطأ والصواب، ويحمل النقاش الهادىء، بقدر ما يحمل التقاء صفوة الاراء من على كل المنابر مهما تعددت ومهما اختلفت ومهما طال نومها. لعلها بداية النور في نهاية ذلك النفق المظلم. بل لعلها ـ طموحاً ـ بواكير الصحوة القومية الثانية.

واشكالية «المسيحيون والعروبة» لا تعني بأنها هي المسألة الوحيدة المختلف عليها في الاطار القومي العربي، بل لعل اشكالية «المسلمون والعروبة» هي الوجه الآخر والاخطر لعملة واحدة مزورة، تدعم بعضها البعض وتوفر مبررات التداول في سوق الاوراق الطائفية.

قد يبدو للكثيرين ان الحديث عن الوحدة العربية في الظروف السياسية الحالية، حديث قد عفا عنه الزمن. وان الحديث عن القومية العربية في عالم اليوم المتغير، قد أصبح اضغاث أحلام. اسمحوا لي ان اختلف مع هؤلاء الكثيرين.

رياض نجيب الريّس

١

تصفية شراكة التراث الوطني

«إنني أقـول الحقيقـة، ليس كما أريد، إنما بمقدار ما أجرؤ. وإنني أجرؤ أكثر فأكثر كلما تقدم بي السن».

ـ مونتاين ـ

لماذا يعاد فتح ملف كنا نعتقد اننا فرغنا منه منذ اكثر من نصف قرن؟ أليس من المُضجـر والمُتعب والمُمل أن تعيدنا الأزمة اللبنانية الى طرح مواضيـع تدور حول عروبـة المسيحيين وهوية اللبنانيين؟ لماذا يوضع الوجود المسيحي والكيان اللبناني موضع جدل وشك دائمين؟ ألم يعد من الضروري الكف عن مناقشة هذه المسألة؟

أسئلة، أسئلة، أسئلة ـ كلها تحمل جواباً واحداً. لا. لا. الملف ما زال مفتوحاً، ويبدو انه لم يتعب ولم يضجر منه اللبنانيون.

منـذ وقت طويل وأنا أتساءل: مَنْ يريد أن يضع الوجود المسيحي والكيـان اللبنـاني موضع جدل دائم واشكالية لا يراد لها أن تنتهي؟ ويـأتيني الجواب ببساطة متناهية: المارونية السياسية. لذلك لم أجد تفسيراً لا بسيطاً ولا معقداً ـ خارج التفكير السياسي المزدوج الشخصية للمـارونـيـة السـيـاسـيـة. وإلا لماذا يكـره بعض المـسـيحيـين اللبنـانيـين ـ والمـوارنـة منهم بالذات ـ كل ما يمت بصلة الى العرب والعروبة من جهة، وكل ما يقرِّب بينهم وبين سورية ويجمعهم ويوحدهم بالسـوريـين من جهـة ثانية؟ في الوقت نفسه لا يتردد هذا البعض في التباهي بمساهماته في الحضارة والآداب العربية وحتى في أصوله السورية.

طوال السنوات العشر الماضية كنت أحاول ان أجد لهذه الفئة في غمار الحرب الأهلية اللبنانية الأعذار تلو الأعذار من وحي التقلبات الظرفية على الأرض، مقنعاً نفسي بأنه متى ما خفّت وطأة الحرب، لا بد لازدواجية الشخصية هذه من أن تعود وترتكز على العقل والمنطق والتاريخ، بعودة الوعي الى الكثير من النفوس مع عودة المنطق التاريخي والواقع الجغرافي الى عقول هذه الفئة المسيحية المرتبطة على الأقل مصلحياً ـ ان لم يكن

عضوياً ولا عاطفياً ـ بهذا المنطق وذلك الواقع.

وأدركت بسذاجتي الوطنية، مع تقلبات الظروف السياسية على الأرض اللبنانية ـ وتحديداً طوال السنوات الثلاث الأخيرة حيث قرأت ورصدت تقريباً معظم التصريحات التي أصدرتها والمواقف التي اتخذتها مختلف التجمعات المسيحية اللبنانية ـ ان المطلوب ليس الخروج من حرب السنوات الثلاث عشرة الاخيرة بصيغة سياسية تلتزم مبدأ وتطبيقاً بالمساواة والعدل والحرية لكل المواطنين سواء أكانوا عرباً مسيحيين أو عرباً مسلمين في اطار سياسي لمشروع توحيدي لبناني عربي.

وأدركت أيضاً، انني ما زلت ذلك الوطني العربي القومي الوحدوي الساذج، المصاب بعمى الألوان الطائفية الذي لا يريد أن يرى الأزمة اللبنانية إلا من شرفة عصر النهضة القومية والوحدوية ـ ولو انحطت ـ رافضاً الانتقال الى شرفة عصر ملوك الطوائف ـ ولو ازدهرت.

من خلال هذه التساؤلات وعبر هذه المنطلقات، أريد بكثير من البساطة أن أقف عند مجموعة أمور، تبدو بالنسبة إليّ وربما إلى غيري كذلك، بديهيات سياسية وفكرية لا يستحق أن يتوقف عندها أي مثقف مسيس عصري في عالم اليوم الرحب الأرجاء، القصير المسافات، المتصل الأبعاد، المعتمد بعضه على بعض آخر ـ لولا عصر الردة الدينية الطائفية. إلا أن التطورات السياسية الحاصلة على الساحة اللبنانية أعادت الأمور الى نصابها البديهي، حيث تصب كل الطروحات في الخلفيات الفكرية التي قدمها بعض الفكر السياسي الماروني منذ القرن الماضي أيام بشير الشهابي وأحمد الجزار والقائمقاميتين، الى بدء الحرب الاهلية اللبنانية في العام ١٩٧٥، واستمر على طرحها بأصوات متعددة وأشكال مختلفة طوال سنوات الحرب من دون أي تعديل في الأساس، وأخذ يمارسها فعلا على الأرض منذ الغزو الاسرائيلي للبنان في حزيران ١٩٨٢.

لنبدأ بالتساؤل عن مجموعة البديهيات الفكرية والسياسية المطروحة على بساط البحث في لبنان، والتي ساهمت أصلا في اللجوء الى السلاح، ومن أجل التوصل الى اتفاق بشأنها يتم السعي الآن لوقف القتال. هذه

البديهيات تبدو وكأنها مجموعة من الغيبيات والطلاسم التي يجب أن تفك رموزها، قبل التوصل الى مواجهة منطقية معها. إلا أن الملفت للنظر، عند الاستغراق في متابعة هذا التفكير السياسي، مدى التطرف الذي يلون معظم أفكاره وطروحاته في الابتعاد عن ما يجمعه بالعرب وبسورية معا، مما دفع أصحابه الى الاجتهاد في تحريف التاريخ وتزويره، وتفسير المواقف وتأويلها في محاولة لتجريم العروبة وادانة المتمسكين بها، وذلك لتبرير شعور المسيحيين بالخوف من طغيان الأكثرية الاسلامية في المنطقة، سواء كان هذا الخوف مستنداً الى أساس أو لم يكن. وإذا كانت هذه الخطة نجحت فعلى حساب المسيحيين أنفسهم كأقليات دينية في العالم العربي مخلصة كل الاخلاص لانتمائها العربي تاريخاً وثقافة وسياسة ومصيراً.

ولا بد قبل معالجة هذه المشكلة من رسم ثلاثة خطوط أفقية متوازية لمواقف ما يسمى بالمارونية السياسية خلال السنوات العشر الماضية. وهذه الخطوط هي:

١ـ المسيحية والعروبة.

٢ـ المسيحية وسورية.

٣ـ المسيحية واسرائيل.

فمن خلال هذه المواقف الثلاثة يمكن رسم صورة واضحة للتخبط السياسي الذي يعيشه بعض المسيحيين اللبنانيين منذ بداية الحرب الأهلية اللبنانية الى اليوم.

على انه لا بد من شرح المأزق الذي وجد فيه هؤلاء المسيحيون أنفسهم وهم يقرون بينهم وبين أنفسهم أن دورة عقد كامل من العنف والحروب ومختلف التحالفات أوصلتهم الى هزيمة جعلت رجلا كالمطران جورج خضر ـ مطران جبل لبنان للروم الارثوذكس، وأحد أصحاب الفكر المسيحي المشرقي الانطاكي التوفيقي ـ يخشى من أن يشجع «الانتصار» الذي احرزه المسلمون أو بعض المتعصبين منهم الى افقاد المسيحيين ما يميزهم، وربما الى عزلهم سياسياً.

وهكذا وقع بعض المسيحيين اللبنانيين وبعض الموارنة منهم خاصة،

في ورطة، فأوهموا أنفسهم أنهم برفضهم الانتماء العربي تخوفاً واستعلاء، تحالفوا مع اسرائيل، فوضعوا ـ وربما للمرة الأولى منذ الحروب الصليبية ـ قضية المسيحية كوجود في المنطقة على المحك. بل الأخطر من ذلك في رأيي هو أنهم شككوا في تراث عربي واسلامي عريق شارك المسيحيون العرب جميعاً في صناعته لا بوصفهم مسيحيين قبل الاسلام وبعده، بل بوصفهم عرباً كسائر اخوانهم العرب. ومن المؤسف أن هذا الجهل والتجاهل للواقع التاريخي ولحقيقة الحركة الصهيونية، كادا يجعلان من المسيحيين واللبنانيين أداة لتصفية ثلاثة عشر قرناً من الجهد الثقافي والسياسي الذي قام به المسيحيون فاثبتوا أنهم جزء لا يتجزأ من تاريخ العرب.

ان العلاقة الاسرائيلية مع بعض المارونية السياسية هي شبيهة بالعلاقة الصليبية الغربية التي حاولت عن طريق التغلغل في المسيحية الشرقية، الحاق قسم من كنائسها بها. من الكنيسة المارونية الى شق الكنيسة الارثوذكسية الى اختراع طوائف جديدة، أريد لها أن تكون اداة للغرب في المشرق العربي. وتمت بذلك أكبر عملية تزوير لتاريخ المسيحية العربية. فالجهد المسيحي المتواصل منذ يوحنا الدمشقي حتى اليوم، من أجل الانصهار داخل النسيج الطبيعي للبلاد العربية، أي داخل ثقافتها العربية الاسلامية، جرى طمسه لمصلحة تاريخ مزور وكاذب أراد تحويل مسيحيي هذه البلاد الى مطية للغرب، كما يراد به اليوم أن يتحول الى حصان طروادة لاسرائيل.

وإذا كان الحكم العثماني قد سمح للغرب في لعب دور أساسي داخل الطوائف المسيحية عن طريق القناصل والمبشرين، ونجح في مهمته، فإن الحكم الاسرائيلي يريد أن يعيد الكرة. وإذا انتهت الحروب الصليبية باضطهاد المماليك للأقليات التي تحالفت مع الصليبيين، فان هذا الاضطهاد شمل المسيحيين والمسلمين ـ وخاصة الأقليات منهم ـ على حد سواء. كذلك فان مجازر جبل لبنان سنة ١٨٦٠، ليست تجربة يجب أن تعاد ليستمد منها المسيحيون طاقتهم للخوف الدائم[١].

ومن المؤسف أيضا، أن استمراء اسطورة الخوف الدائم، هو عامل

آخر في هذا السبيل، تحججا بالمد الاسلامي والدعوة لاسلمة المسيحيين، بحيث أن كميل شمعون لم يجد حجة ضد مقررات اجتماع شتورة في آب ١٩٨٥، إلا القول ان المقصود منها «أسلمة لبنان»[٢] مؤكداً ان «هوية لبنان قامت على الطائفية». وكذلك الإغراق في إبراز أثر الفينيقية والمسيحية في جعل الشخصية اللبنانية مميزة ومجردة من التأثر بالاسلام وباللغة العربية وآدابها التي تبناها موارنة لبنان وكانوا لا يزالون من طليعة العاملين فيها.

ولا بد هنا من الاشارة الى أن هذا الاحراج الذي الحقته بالمسيحيين اللبنانيين هذه الفئة المارونية السياسية، ما كان ليحصل لولا سقوط حركة القومية العربية والانحطاط الذي أصابها، وفشل المشاريع الوحدوية، وضمور الاحزاب القومية، وانحلال الحركات العلمانية، وهزيمة الأنظمة العربية ذات التوجه القومي عسكرياً في وجه اسرائيل وإشغالها داخلياً بهبات طائفية مفتعلة وانشغالها بأزمات سياسية محلية فردية، وأهمالها للديموقراطية فكراً وممارسة كأحد أقانيمها الأساسية.

وما من شك ان هذه الحال التي انتهت اليها حركة القومية العربية شجع على اختراع فهم ايديولوجي مضلل للكيان اللبناني، من شأنه تحويل الطائفية الى ظاهرة ازلية ـ أبدية، مما خلق بدوره «إنطباعاً» بان هناك مسيحيين وطنيين ومسيحيين غير وطنيين، كأن هذا الواقع مقتصر على المسيحيين، كما خلق بالمقابل إنطباعاً خاطئاً بأن كل المسلمين وطنيين. فهناك مسلمون وطنيون ومسلمون غير وطنيين ومتعاونون أشد التعاون مع اسرائيل وبشكل يوازي التعاون الماروني ـ الاسرائيلي.

وأحد الأدلة على ذلك ان عدد المسلمين الذين أيّدوا اتفاق ١٧ أيار ـ داخل مجلس النواب وخارجه ـ لا يقل كثيراً عن عدد المسيحيين الذين انجرفوا وراءه. ان مفهوم أن يكون هناك مسيحي أو مسلم وطني أو غير وطني، ما هو إلا تكريس للطائفية التي يفترض محاربتها.

لا أحد ينكر أن هناك أبعاداً طائفية محلية ودولية لأزمة المسيحيين في لبنان، لها جذورها في التاريخ اللبناني وهي كلها في النهاية صراع أقليات مع أقليات أخرى تريد أن تدعي أنها الأكثرية لتنال الحصة الأكبر من

حكم لبنان، كالصراع الدرزي ـ الماروني والصراع السني ـ الشيعي. وقد شجعت اسرائيل، منذ الهزيمة العربية في حزيران ١٩٦٧، هذه الصراعات وجيرتها لمصلحتها ولحسابها في سبيل أن تكون وتبقى هي القوة الاقليمية الكبرى المسيطرة في المنطقة العربية. ونجحت اسرائيل عن طريق هذه الفئة المارونية السياسية في تحويل الصراع الدموي الذي يجري في لبنان من كونه صراعاً محلياً بين مجموعة قوى صغيرة تسعى للسيطرة على الحكم في لبنان، الى صراع يرمي الى تصفية القضية الوطنية العربية والى هزيمة الحركات القومية العلمانية العربية والوحدوية الى درجة شرشحتها نهائياً، وإمعاناً في انحطاطها وإذلالها. ونجحت اسرائيل، طوال سنوات الحرب العشر الأخيرة، في الايحاء الى المسيحيين وإقناع بعضهم بأن العدو الذي يحاربونه هو القومية العربية التي تهدد وجودهم، وهو سورية العربية التي تنوي ابتلاعهم.

وعندما استطاعت اسرائيل أن تدخل الى هذا الاتجاه المسيحي اللبناني عقلية الصليبية الغربية، كانت تعرف، بحكم قراءتها الجيدة للمبادرات التاريخية، أنها ستخلق في المقابل عند الطرف المسلم عقلية الفتح الاسلامي. لكن اسرائيل نسيت عند استقطابها هذين التطرفين، ان تحسب حساب نشوء المقاومة الوطنية اللبنانية ونموها التدريجي في أن تصبح من أروع ما قام به العرب في تاريخهم من نضال في وجه العدوان الخارجي.

ان اسرائيل لا تريد فقط ان تحتل أرضاً وان تقيم وطناً على انقاضه، ولا أن تبيد شعباً بكامله، وإنما تريد أيضاً الاستيلاء على التاريخ العربي ومنه اللبناني وتزويره، وتهشيم صورته، واجتثاث مضمونه الحضاري، وهذه الحقيقة يجب أن يعلمها المسيحيون جميعاً ومن دون استثناء.

هوامش

(١) الياس خوري ـ «المسيحيون والمسألة اللبنانية» ـ «السفير» ـ ١٩٨٥/٤/١٤.

(٢) كميل شمعون ـ تصريح حول «اتفاق شتورة» الذي تم بين حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي مع مجموعة من الاحزاب الأخرى في آب ١٩٨٥ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٨/١٤.

٢

المحطات الأربع للمارونيّة السياسيّة

«إن شعب لبنـان هو شعبنـا تماما كما شعب سورية هو شعب لبنان (...) نحن شعب واحد في دولتين»

ـ الرئيس حافظ الأسد ـ
(١٩٨٥/٨/٩)

«الوطن الاعجوبة الذي اسمه لبنان»، تعبير استعمله الكثيرون من الكتاب اللبنانيين في وصف لبنان، دفاعاً عن كيانه وإثباتاً لخصوصيته. على اني، انا شخصيا لم استطع أن أرى طوال أربعين سنة من إقامتي في لبنان أين هي الأعجوبة في هذا الوطن. هل هي لأنه لا يزال في حرب أهلية منذ ثلاثة عشر سنة ونيف، مارس فيها المتقاتلون كل أنواع العنف اللاأخـلاقي والوحشية المفترسة والتعصب الطائفي والهمجية القبلية، وتشريع أبوابه على مصراعيها لكل أجنبي يتوسله ويستخدمه لا لحماية استقلاله وكيانه (وإن كان في ذلك عذر أقبح من ذنب) بل لحماية طوائفه والحفاظ على مكاسبها وربط ما تبقى من استقلاله في عجلة هذه أو تلك الدولة الأجنبية. ومن المؤسف أن سمعة لبنان، منذ أن صار له اسم على الخريطة السياسية، هي سمعة الارتماء في أحضان الحماية، لا سمعة الكفاح من أجل الاستقلال الحقيقي.

وهنا أريد أن أشير الى ضرورة التمييز بين لبنان واللبنانيين، وكذلك التمييـز بين المسيحية والمسيحيين وبين الاسلام والمسلمين. فاذا كان هناك أعجوبة ما، فهي في اللبناني الفرد واللبنانيين الشعب وانجازاته، لا في لبنـان الكيان الجغرافي «الازلي السرمدي». فالاعجوبة التي أظهرت «الاعـور» اللبنـاني ملكـاً بين «العميـان» العـرب في فترة الخمسينات والستينات من هذا القرن، حين طغت في العالم العربي ظاهرة الانقلابات العسكرية وتحولت أكثر الانظمة العربية الى انظمة «اشتراكية» يحكمها حزب واحـد، وتم من جهة أخرى توثيق الانظمة العائلية الأوليفارشية الملكيـة والامـاراتيـة والمشيخية غير القابلة الا بالاسلام، انقلبت هذه الأعجوبة في السبعينات والثمانينات الى انهيار كلي «للنموذج اللبناني»، الممثـل بالتعددية الطائفية والديموقراطية العشائرية والبرلمانية القائمة

على الزعامات الطائفية التقليدية. فاذا بهذه الأعجوبة تنحصر في نطاقين ضيقين:

□ الأول: الحرية السياسية، بمعنى أنه يمكن للبناني ـ والعربي المقيم في لبنان، أن يعبر الى حد ما في المقاهي وفي الصحف عن معارضته (ضمن الحدود التي كان يرسمها القانون اللبناني مراعاة للانظمة العربية) لسياسات معينة.

□ الثاني: الحرية الاقتصادية، بمعنى ان اللبناني ـ والعربي المقيم وغير المقيم في لبنان ـ يستطيع أن يوظف أمواله في مصارف لبنان في منأى عن «اشتراكية» الانظمة العربية، وأن يشتري ويضارب ويبيع، ضمن الحدود التي ترسمها المصلحة اللبنانية فقط.

إلا ان هناك مَنْ يقول ان الاعجوبة الاساسية كانت قبول الطوائف بالوطن ـ الفندق. وفيما كان الماروني يحتمي بالغرب المسيحي، كان المسلم يحتمي بالاسلام العربي، مجبّراً اما دمشق واما القاهرة للمهمات الصعبة.

ولكن مع بداية السبعينات، تقلصت أعجوبة هاتين الحريتين السياسية والاقتصادية، ومع نهاية السبعينات هرب الرأسمال العربي، وفي منتصف الثمانينات، وبعد حوالي ثلاث عشرة سنة من حرب أهلية ضروس، انهارت الأعجوبة الاقتصادية عندما وصل الدولار الى حدود ٥٠٠ ليرة لبنانية، كما انهارت الأعجوبة السياسية بعد أن قضى الارهاب الداخلي على بقايا الحريات السياسية وأصبح التبجح محصوراً في الماضي ولا يتعداه الى الحاضر ولا الى المستقبل.

وبينما كان هذا يحدث، كانت الانظمة العربية «الحسودة» للبنان في رأي بعض اللبنانيين، تنمو اقتصادياً وتتطور سياسياً وتتحرر داخلياً وتقوى خارجياً، على الرغم من النواقص الكثيرة التي كانت تتمتع بها من وجهة نظر «الحريات اللبنانية». وانتهت الأعجوبة التي اسمها لبنان، لأنه لم يكن وطناً، بقدر ما كان شيئاً آخر.

هذا الوطن الذي اسمه لبنان، وهذه الأعجوبة التي اسمها اللبنانيون، التي تريد سورية أن تضع اليد عليها وتريد العروبة أن

تمحي خصائصها، وتريد القومية العربية ان تزيل تاريخها، وتريد الدعوات الوحدوية ان تمتص كيانها، لأن لا سورية ولا العروبة «تتحمل أن يكون لبنان على الصورة التي كان عليها، ولا بد من أن تقاسم سورية الازدهار الذي ينعم به»[٣].

والآن ما هو موقف هذه الفئة المارونية السياسية من عروبة الوطن اللبناني؟ ان الاجابة على هذا السؤال يجب أن يسبق النظر في الازدهار اللبناني قبل الحرب الأهلية وأثناءها وقبلها، لتبيان الوهم الذي أشاعه وقام عليه.

إذا اتخذنا من تشكيل حكومة «الوحدة الوطنية» برئاسة رشيد كرامي في نيسان ١٩٨٤ وموقف القوات اللبنانية وبيانها الوزاري مدخلا الى تحديد مواقف المسيحية اللبنانية من خلال هذه الفئة المارونية السياسية التي تعبر عنها عملياً «القوات اللبنانية»، فماذا نجد؟

نجد أن أول وابرز ما أحرزه موقف هذه القوات من ذلك البيان هو الاصرار على رفض التنازل «عن أي حق من حقوق الشعب المسيحي». اذن فهي تدافع عن الشعب المسيحي أولا لا عن الشعب اللبناني، إلا اذا اعتبرنا ان اللبناني هو المسيحي فقط، وهذا ما يبدو على الأرجح من سياق البيان ـ الموقف لهذه المارونية السياسية ـ العسكرية التي وجدت في البيان الوزاري للحكومة الكرامية تسع نقاط وصفتها «القوات اللبنانية» نفسها بـ «الهرطقة»، نقتطف منها أربعاً لأنها ذات علاقة مباشرة بموضوعنا:

□ الهرطقة الاولى: تاريخية: «بإعطاء الشعب اللبناني هوية عربية مزورة ومفروضة على المسيحيين».

□ الهرطقة الثانية: أمنية: «بتحويل الجيش اللبناني الى جيش عروبي وجعل لبنان دولة مواجهة ضد اسرائيل».

□ الهرطقة الثالثة: وطنية: «لمبدأ تمييز الاحتلال، بحيث يدان الاحتلال الاسرائيلي في الجنوب والبقاع الغربي، ويشاد بالوجود العسكري السوري في شرق لبنان وشماله الذي نعتبره احتلالا مثل الاحتلال الاسرائيلي».

□ الهرطقة الرابعة: تربوية: «بتطوير البرامج التربوية بما يرسخ الهوية العربية، الذي نعتبره طعنة موجهة الى واقع المسيحيين الثقافي»[٤].

نفهم من هذا الموقف ان لبنان وطن مسيحي، لأن عروبته مزورة ومفروضة على المسيحيين، وان جيشه ليس جيشاً «عروبياً» وأنه ليس في حالة عداء أو حرب أو مواجهة مع اسرائيل، وبالتالي فان الاحتلال الاسرائيلي هو كالوجود السوري، وان من الممكن ان تكون اسرائيل دولة حليفة أو صديقة. إنما الاخطر من ذلك كله هو اعتبار ترسيخ الهوية العربية في البرامج التربوية بأنه طعنه موجهة الى واقع المسيحيين الثقافي.

لنتوقف عند «الهرطقة الرابعة» قليلا، لنرى مدى صحتها وعما إذا كان واقع المسيحيين الثقافي عربياً أم لا.

لعل أوضح ما يظهر الانفصام في هذه الشخصية المارونية السياسية - اللبنانية - هو ادوار حنين. وادوار حنين، الأمين العام لـ «الجبهة اللبنانية» (حتى استقالته في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧، اثر وفاة كميل شمعون ومرض شارل مالك، الذي توفي في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٨) نائب «كتلوي» قديم، قبل أن يهجر العميد ريمون اده وحزبه الى احضان الكتائب ومن قبله سليمان فرنجية، قبل أكثر من عشر سنوات، عند بداية الحرب اللبنانية، وهو أحد السياسيين اللبنانيين القلائل الذين يجيدون العربية اجادة امتاز بها بكل ما فيها من تنميق وتفخيم وبراعة لفظية. ولا غرابة في ذلك وهو أحد الذين أسسوا «جمعية أهل القلم» في نهاية الخمسينات ثم خلف صلاح لبكي في رئاستها. وهو يكثر من الاستشهاد بالامام علي وبالمتنبي وبشعراء الجاهلية تدليلا على طول باعه في آداب العربية. ومنذ تأسيس «الجبهة اللبنانية» وهو يدلي بتصريح أسبوعي أو شبه اسبوعي يتناول فيه بالتعليق مختلف الشؤون السياسية العامة. ويستدل من تصاريحه أنه أحد النماذج السائدة في بعض اتجاهات الفكر السياسي المسيحي الماروني، التي يتنازعها، من خلال انفصام الشخصية السياسية، عاملان: عامل الحقد على العروبة والكره لها من جهة (التي يعتبرها المد الاسلامي الذي يهدده لأن العروبة

في نظر المسلمين اللبنانيين هي الاسلام)، وعامل الاعتزاز بالدور المسيحي (اللبناني بالذات) في النهضة العربية من جهة أخرى.

عن عربية الواقع الثقافي للمسيحيين وعروبتهم، يقول حنين: «ان أول كتاب وضع في ضبط قواعد الصرف والنحو للغة العربية هو كتاب «بحث المطالب» للمطران جرمانوس فرحات عام ١٧٠٠، وظل وحده معتمداً حتى أواخر القرن التاسع عشر، وان أول قاموس وضع في شرح المفردات العربية، وردها الى أصولها، وفي الدلالة على مواقع استعمالها الصحيح هو «محيط المحيط» للمعلم بطرس البستاني. وما زال الى اليوم في رأس القواميس المتداولة، وان أول منتخبات متدرجة في الأدب العربي هي كتاب «مجاني الادب» وهو من ستة أجزاء للاب لويس شيخو اليسوعي، وان أول دراسة نقدية للادباء والشعراء والمفكرين العرب هي مجموعة «الروائع» التي قارب عدد اجزائها المائة، ولا تزال معتمدة في التدريس في كل البلاد العربية (...)».

ويكمل أدوار حنين حديثه: «عن دائرة المعارف» التي بدأها المعلم بطرس البستاني وأكمل وضعها الدكتور فؤاد افرام البستاني، وعن أول مطبعة في الشرق لطباعة الكتاب العربي، وأول كتاب ظهر في القضية العربية وضعه جورج حبيب انطونيوس من دير القمر بالانكليزية وعنوانه «يقظة العرب»، وأول دعوة الى الوحدة العربية اطلقها الشاعر شكري غانم بالفرنسية من باريس، وعن دعوات الشيخ ابراهيم اليازجي وخير الله خير الله ووديع البستاني (...)»[٥]

إذا كان كل هذا التراث لا يخلق عند المسيحيين واقعاً ثقافيا عربيا، فماذا يخلق اذن؟ وهل كانت مساهمة المسيحيين الهائلة والتي لا تنكر في التراث العربي الثقافي والأدبي واللغوي والحضاري والسياسي طعنة موجهة الى واقع المسيحيين الثقافي؟ ان الرجل العاقل يكاد يحتار في تفسير هذه الازدواجية في مثل هذا التفكير السياسي المسيحي الذي يمثله النائب والوزير السابق ادوار حنين. فهو سرعان ما يقفز بعد هذا الكلام الى الاستدراك بالقول ان كل هذه الانجازات العلمية والوطنية: «لا تخلق قومية ولا حتى انتماء (...)» وان اللبناني اختار من بين كل هذه الأمجاد

«اللغة العربية فقط».

ترى ما هو واقع المسيحيين الثقافي اذا لم يكن عربيا، وعربيا قحاً، مهما كان مطعما بأمواج المتوسط، كما هو مطعم برمال الصحراء؟

وبالمنطق المزدوج العجيب نفسه، يبرر حنين عمل أو دفاع أي لبناني عن القضايا العربية بالقول ان ذلك لا يجعل من هذا اللبناني أو غيره عربيا في الانتماء والهوية، بل «يجعل منه ومنهم كما في كل حين مجندا ومجندين في خدمة العرب». أي ان حنين لا يمانع في أن يكون المسيحيون اللبنانيون في خدمة العرب، ولكن ذلك لا يجعلهم، بالضرورة عرباً.

ومـا ان نعتبـر آراء ادوار حنـين هذه وجها مهذباً لمثل هذا التفكير الماروني السياسي، حتى يفاجئنا بالدخول في مغالطات تاريخية جدية لا تتم عن صفاء نية، حين يتخذ من حادثة شبوب حرائق في لبنان، لا علاقة لها بالقتال الدائر هناك، ليقول «منذ ان احرقت مكتبة الاسكندرية بأمر من عمرو بن العاص، مستنداً الى أمر الخليفة عمر بن الخطاب، بحسب قول المـؤرخـين المسلمين عبد اللطيف البغدادي وجمال الدين علي بن يوسف وفي مقدمة ابن خلدون.. منذ ذلك الحين لم يعد يجد العرب حرجاً في احراق المكتبات والدور والقصور والدنى الخضراء». وعلى الرغم من عدم صحـة هذا الكـلام علميا وتاريخياً (في العودة الى المصادر التي ذكـرها)، ينتقل حنين الى الدعوة لتمكين لبنان من الدفاع عن كنائسه وأرضه، كما تمكن سورية من الاعتداء على كنائس لبنان وأرضه، معدداً كنائس هدمت ومكتبات احرقت[٦].

ولم يتردد ادوار حنين، وحده من بين كل السياسيين اللبنانيين، من أن يجد مبرراً لزيارة وزير الدفاع الاسرائيلي السابق موشى ارينز في ٢٥ حزيران ١٩٨٣ واجتماعه بعدد من قيادات «الجبهة اللبنانية» والقوات اللبنانية، قائلا ان لبنان «هو الذي يعين اصدقاءه واعداءه، وهو لا يقبل ان يعينهم له احد أو يشاركه أحد في تعيينهم». واخذ على منتقدي اللقاء مع الاسرائيليين انهم يؤيدون التفاوض مع السوريين «في الوقت الذي تكون مدافع السوريين آخذة بقصف المدن والقرى اللبنانية»[٧]، ودعا حنين بصراحة تامة السلطة اللبنانية الى «قبول كل شيء في المفاوضات

اللبنانية ـ الاسرائيلية لاخراج ياسر عرفات وعصابته من لبنان (...) وان كل شيء رخيص في سبيل ذلك، اذ بذل (...) وان كل شيء مقبول مهما كان بدله في الاتفاقات الجارية بين لبنان واسرائيل»[٨].

والمثير للدهشة في كل ذلك، أن ادوار حنين، الداعي الى اعطاء اسرائيل كل غال ورخيص في سبيل ابعاد لبنان عن سورية والفلسطينيين واخراجه من الدائـرة العـربية، يعرف تماما اطماع اسرائيل التاريخية في لبنان والعالم العربي، اذ يقول: «ان اسرائيل تعمل من ضمن تصميم عام بغية الوصول الى اهدافها التي في رأسها اعادة انشاء مملكة داود (...) وهي ترى للتوصل الى ذلك: تفتيت الدول المحيطة بها وتجزئتها دويلات صغيرة لا تخـاف وقعها عليها، فتصبح سيدة على الموارنة والشيعة والسنيين والدروز في لبنان، وعلى دول السنيين والعلويين والدروز في سورية وعلى دول السنيين والشيعة والأكراد في العراق، وعلى تجزئة المملكة العربية السعودية (...)»[٩].

مل النـاس عبر ربع القرن الاخير على الأقل، الاجتهادات اللبنانية الضيقة، وهي تنظر في أصول وفروع اللبنانيين وكأنهم عرق بشري خاص لا مثيل له في الكون، حتى أصبح الجدل حول عروبة لبنان سخيفا لا جدوى منـه، كمـا أصبح التغني بلبنان وامجاده معيبا وإيجاد المبرر لقومية لبنانية مستقلة امرا مرفوضاً لا يقره الواقع التاريخي.

على ان بعض الجهات المارونية السياسية لا تزال تصر على ان انتماء لبنان العربي لم يكن اختيارا حرا، بل مفروضا بعوامل جغرافية وظروف سياسية ارضاء للمسلمين اللبنانيين المترددين في قبوله وطنا نهائياً، على الأقل حتى الماضي القريب.

فهل لبنان بالحقيقة، هذا «الوطن النهائي» الذي تنادي به المارونية السياسية المتطرفة وتعمل على تكريسه؟

لنـأخـذ حزب «حـراس الارز» مثلا على هذه النزعة المتطرفة. فهذا الحـزب الذي نشأ ابان الحرب اللبنانية يصدر بيانات بين وقت وآخر يحدد فيها ما يسميه بـ «الموقف اللبناني».

فهو على سبيل المثال يهاجم الشاذلي القليبي، الأمين العام لجامعة

الدول العربية لأنه قام بجولة في تموز ١٩٨٤ زار خلالها بعض الرؤساء العرب وبحث معهم في موضوع «تعديل ميثاق الجامعة وتطوير انظمتها وربما انشاء مجلس مركزي لكونفيدرالية عربية تضم كل الدول المنتسبة اليها». فقد اعتبر «حراس الارز» ان جولة القليبي ما هي الا «محاولة جديدة لتزوير الهوية اللبنانية وما يترتب على هذا التزوير من التزامات اقلها الاندماج طريقا الى التذويب والزوال. ان مساعي «العربنة» (لاحظ هذا التعبير الجديد) لن تقف بالطبع عند حدود الهوية المزورة بل ستتعداها تدريجيا الى أشكال عدة من قضم ارضنا وطمس تاريخنا والاستعداء على حضارتنا والمس بقوميتنا اللبنانية المقدسة».[١٠]

فالوهم التاريخي الذي خلقته هذه المارونية السياسية من أي كلام عن الوحدة والاتحاد مهما كان بعيدا، قد أوجد حالة رعب لدى هذه الطبقة من المسيحيين تضاف الى خوفهم الطائفي، مما جعلهم يخترعون تاريخاً للبنان على أنه «أمة تامة ثابتة الخصوصيات وراسخة الكيان»[١١] ويحددون سمات «للقومية اللبنانية» وخصائص لها، منها ما جاء في بيان من بيانات «حزب حراس الارز»:

«وحدة الحضارة اللبنانية هي حضارة انصهرت فيها معتقدات وعبادات وأديان وتقاليد وعادات ومدنيات اكتسبت خصوصية هذه الأمة اللبنانية واتحدت بها».

بالطبع هذا كلام عام ينطبق على أية حضارة، وخاصة الحضارة العربية بينابيعها المختلفة، ولا يعطي أي مبرر تاريخي علمي لشيء اسمه «القومية اللبنانية» سوى الشعور الشوفيني الأقلي والاستعلائي في آن معا، لخلق تميز مصطنع عن بقية العرب. فهذا الحزب، في معرض رده على دعوات الى الوحدة مع سورية ورفضه لها يقول اننا نرفض «الاندماج في الامة العربية الوهمية وبالكيان العربي المصطنع».[١٢] فاذا كانت الأمة العربية «وهمية» والعرب كيان «مصطنع»، فهل «الأمة اللبنانية» بالمنطق السطحي نفسه، أمة حقيقية ولبنان كيان راسخ؟

ان التمادي بالاصرار على هذه «الامية التاريخية»، أصبح معيبا ان لم يكن مضحكاً. ومن المؤسف ان هذه الأمية ليست حكراً على حزب

هامشي في الحركة المارونية السياسية، بل ان شخصاً كفادي افرام، القائد الأسبق للقوات اللبنانية، التي هي حركة الأصل والفعل للمارونية السياسية، يعتبر ان التيار العربي: «هو في النهاية تيار ثيوقراطي ذو بعد يقضي على كل الخصائص والمميزات التي تحملها الشعوب الكثيرة في المشرق، وحتى في شمال افريقيا. فلماذا يراد طمس ما تبقى من حضارة الفرس والكلدان والاشوريين والاكراد والبيزنطيين والموارنة واليهود والأقباط والبربر باسم العروبة والوحدة العربية؟»[١٣]

وعلى الرغم من ان فادي أفرام لم يعد اليوم نافذا في «القوات اللبنانية»، إلا أنه يعبر فعلا وقولا عن تفكير «القوات اللبنانية» السياسي، الذي لا علاقة له بشخص فادي افرام ولا يتغير بزواله. فهو الذي برر العلاقة المارونية باسرائيل على أن «اتصالاتنا باسرائيل هي تأتي بان نقيم توازناً استراتيجيا مع سورية. وبمقدار ان سورية لا تخفف من تهديدها للبنان، وللشعب اللبناني، فان اللبنانيين خصوصاً المسيحيين، سيبحثون خارج اطارهم عن توازنات استراتيجية». وأعلن في معرض تعليقه على الاصلاحات التي طرحتها حكومة «الوحدة الوطنية» الكرامية، ان المسيحيين «سيقاومون الاصلاحات سياسياً(..) إلا انهم سيلجأون الى السلاح إذا حاولت سورية فرض هذه الاصلاحات بالقوة».

وتتضح الأمية التاريخية أكثر وأكثر في هذا النمط من الفكر السياسي الماروني، عندما يقول افرام في معرض رده على الدعوة لاسلمة المسيحيين: «ان الشرق الاوسط كان مسيحياً لكن الاسلام اخذه (...) ولبنان هو المعقل الأخير لمسيحيي الشرق من أرمن تركيا وأقباط مصر وسريان وكلدان ايران والعراق وسورية».[١٤]

وهكذا نجد ان هاجس جمع الاقليات المسيحية من العالم العربي أولا ومن الشرق الأوسط ثانيا في لبنان هو هاجس هذه المارونية السياسية، كما كان من قبل هاجس الحركة الصهيونية جمع شتات اليهود في العالم وتهجيرهم الى فلسطين من أجل قيام دولة اسرائيل. هذه المارونية السياسية تعلمت من اليهودية العالمية ان قيام وطن مسيحي في لبنان يتطلب وجود مسيحيين غير لبنانيين ولا ينتمون الى لبنان أصلا. لذلك

فاهتمامها بكلدان ايران واشوريي العراق وأرمن تركيا وأقباط مصر، ليس اهتماما سطحياً عابراً، وان لم يشاركها فيه المسيحيون الآخرون. ثم ان في محاولتها تقليد الحركة الصهيونية نسيت أو تناست ان انتماء هؤلاء المسيحيين العرب الى وطن سكناهم هو انتماء قومي مرتبط ارتباط كنائسهم بالارض وتاريخها ولا يشاركونهم شعور الخوف ولا ينظرون الى لبنان نظرتهم الى ارض الميعاد المسيحي ولا وطن الاقليات المضطهدة. فلا غرابة اذن ان تفشل هذه المارونية السياسية في تقليدها التجربة الصهيونية في فلسطين، من حيث تشجيع الهجرة المسيحية من العالم العربي الى لبنان، ومن استغلال شراسة الحرب اللبنانية بفرز سكاني يمهد لهجرة المسلمين من لبنان وهجرة المسيحيين الى لبنان.

ان كلاماً من هذا النوع مقابل الكلام الذي قبله والكلام الآخر الذي قبله وقبله، لهو اصدق دليل على الانفصام المخيف الذي تعاني منه هذه الفئة من المارونية السياسية، التي اضاعت الغابة من أجل الاشجار ـ كما يقول المثل الانكليزي ـ في محاولة يائسة ومضحكة في آن معا للانفصال عن العرب والعروبة، من دون أي وعي ان الهوية اللبنانية التي يبحث عنها مثل هؤلاء الموارنة لا بد الا ان تكون هوية عربية ولا يمكن الا ان تكون هوية مرتبطة جغرافيا وتاريخيا وحضارياً بالارض التي نشأوا ونموا وعاشوا فيها. فالمسلمون في بلاد الشام لم يأتوا كلهم من مكة، والمسيحيون لم يأتوا ابدا من روما. لذلك ليس هناك من هوية مميزة للمسيحيين الذين ساهموا جنبا الى جنب مع المسلمين في كتابة التاريخ العربي وبناء الحضارة العربية، سوى الهوية العربية.

هوامش

(٣) فؤاد مطر ـ «سورية في لبنان»: «استفادة من دروس التدخلات والمداخلات» ـ «التضامن» ـ ١٩٨٥/٧/٢٧.
(٤) بيان «القوات اللبنانية» ـ «الشرق الاوسط» ـ ١٩٨٥/٦/٢.
(٥) ادوار حنين ـ «الدفاع عن القضية العربية لا يجعل من صاحبه عربي الهوية» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٦/١٥.
(٦) ادوار حنين ـ «زيارة ارينز كنزول الصاعقة ومنطق المعترضين غير سليم» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٨/٢٦.
(٧) ادوار حنين ـ «حنين يحذر من عودة عرفات» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٦/٣.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) ادوار حنين ـ «معوقات تعترض الحكم اولها غياب التوافق اللبناني» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٥/٢٧.
(١٠) «حراس الارز يهاجم القليبي لدعوته الى كونفيدرالية عربية» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٧/٢٦.
(١١) «حراس الارز يرفض الوحدة مع سورية: لبنان امة راسخة الكيان» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٣/٧،
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) فادي افرام ـ «نرفض ان يحظروا علينا ما يسمحون به للمسلمين والعرب» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٥/١٧.
(١٤) فادي افرام ـ «العالم الاسلامي تجاهل الاقليات والمسيحيون لا يريدون ان يطردوا» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٦/١٧.

٣

استقراء أسطورة
الخوف الدائم

«انا مسيحي في ديني، مسلم في وطني».

- مكرم عبيد - (١٩٣٠)

الوجه الآخر للمسيحية السياسية التي تكاد تصل الى نقيض هذه المارونية السياسية، هو الذي يمثله الى حد كبير المطران جورج خضر، مطران جبل لبنان للروم الارثوذكس، في مقاله الاسبوعي في «النهار» وفي أحاديثه الكثيرة وفي مشاركته للكثير من الندوات. والمطران خضر صاحب فكر توفيقي يلح فيه باستمرار على عضوية المشاركة الاسلامية - المسيحية في الوطن الذي هو لبنان، وفي العروبة معاً.

وعلى الرغم من اللغة الفخمة المنمقة الغنية بالاستعارات الانجيلية التي يجيدها المطران خضر، بكل ما فيها من شاعرية لاهوتية متأثرة بكونه يحمل فكراً سياسياً واضحاً تدعمه ثقافة عربية اسلامية يعتبرها امتدادا للمسيحية الانطاكية وللفلسفة اليونانية، على الرغم من هذا كله يتلمس الجرح الذي يسميه «جرح المسيح الوطني» تلمساً حقيقياً.

ولعل أهم ما كتبه المطران جورج خضر، في رأيي، كتحديد لما يجب ان يكون عليه موقف اللبنانيين، مسيحيين أولا ثم مسلمين، يأتي في اجتزاء من مقالة تعكس ما اعتبره موقف المسيحية العربية من واقع لبنان الحالي والمأساوي:

«كان المسلمون أكثرية ساحقة تعيش بعقلية الاقلية وفي وطأة الامتيازات. ولعل الامتيازات كما يسميها المسلمون والضمانات كما يسميها الموارنة لا تزال قائمة عند اقلية مسيحية كانت تعيش عقلية الأكثرية وفي فوقية واضحة (...) غير ان الظاهرة التي نعانيها على الأرض هي ان العقل الاسلامي في محنته لا يفرق بين المسيحيين، فانه يضحي بهم معا، الأمر الذي يوحدهم على مستوى الاحساس بعدما كانوا مختلفين على مستوى الرؤية. فيلحق بالمسيحيين غير الموارنة إحباط رهيب لأنهم لا يستطيعون ان يقنعوا أحداً بهوية لهم مميزة، وهم اذا حل

الألم لا يريدون ان يفترقوا عن أخوة لهم كائناً ما كان فكرهم السياسي (...)».

وينتقل المطران خضر الى القول: «ومن حمل البندقية اليوم من الشبان المسيحيين لا يقول فيه المسيحيون قولا واحداً. فالمسيحيون اليوم بمن فيهم الموارنة صاروا قوم اعتدال والأكثرون يتمنون أن ترمى البندقية «المسيحية» وليس لهم تصور عن حمايتهم في غياب الدولة، ولذلك باتوا في رعب شديد. وقد اقتنع عدد منهم ان الالتزام العسكري كان حسابا خاطئاً ولو زكاه ما اعتبروه موقفاً وطنياً عظيماً. والشيء الجديد ان التغني باسرائيل لم يبق وارداً وان الاتكال عليها إن ظل وارداً عند قلة إلا أنه زال عند الأكثرية الساحقة مع أسف شديد على الماضي. وما جاء بالتالي بأقلام مسيحية تنديداً باسرائيل يجيء صادقاً ونتيجة خيبة (..) هذا إذا لم نشر الى ما لاحظته اسرائيل وهو أن القسم الكبير من الأدب العربي المنشور ضدها كتبه النصارى».

ويصل المطران خضر الى الموقف الأصرح بقوله: «مقابل ذلك ما يجيء باقلام مسيحية وإجتماعات مسيحية عن دور مميز لسورية، اما عن شعور عربي خبا في الأزمة لكنه استفاق في نفوس لا تزال شرقية أو من حس جيوسياسي (...) الا يحق للجماعة المسيحية أن تتعلم من آلامها (...) بحيث تعي أن سيادة لبنان ولو قائمة بالمعنى القانوني إلا أنها منسوبة الى المشرق العربي ومتصلة به ومتفاعلة وإياه حسب ميزان قوى داخلية وخارجية. إذ ذاك يكون السؤال ليس أي هو القدر الذي نهرب فيه من دمشق، فان الشطارة اللبنانية ليست أقوى من الدهاء الشامي (...) لا بد لسورية، اذا نهضت كل الشعوب المؤلفة لهذه المنطقة، ان تفهم ان الحياة لا تذهب فقط من دمشق لكنها تجيء إليها أيضاً وان شرق البحر المتوسط العربي اللسان يمكن أن تظهر فيه حركة تقوم على جدلية الوحدة والتنوع. وهنا لا بد من الاعتراف ان فكرة التنوع مساهمة خاصة للمسيحيين اللبنانيين الذي سوف يقدر معنى حضورهم في المشرق كله (...) وهذا يعني أيضاً أن القوى المتصاعدة في كل الشرق العربي يجب أن توحي الثقة، بحيث يستطيع المسيحيون دون أن يخونوا

ذاتهم الايمانية ان يتبنوا هذا الحضور العربي. المسيحيون متجذرون في العروبة مهما أثارت هذه اللفظة من خواطر، وهم لا يحتاجون الى حسن سلوك فيها لا أمس ولا اليوم»[١٥]

نفهم من هذا الكلام ثلاثة مواقف أساسية للمسيحية المناقضة لهذه المارونية السياسية، يحاول المطران جورج خضر بتعبيره عنها أن يشفع لكل المسيحيين اللبنانيين، وكأنه يريد ان يوضح بشكل نهائي، بعد عشر سنوات من الاقتتال الدامي، أن الرجوع عن الخطأ فضيلة، وأن الخطأ عندما يقع لا يلغي الحقيقة التاريخية.

■ **الموقف الأول**: ان على المسلمين وهم الأكثرية أن يخرجوا من ذهنية الأقلية، وأن يميزوا بين المسيحيين وان لا يعاملونهم بجريرة بعضهم البعض، لأن ذلك يدفعهم الى التكتل مع أخوة لهم بالدين مهما اختلفوا بتفكيرهم السياسي معهم. بل يذهب الى أبعد من ذلك، فيقول في مقال آخر:

«اليوم غالب ومغلوب. سموا الأشياء باسمائها. لكن هذا البلد اعتاد حياء القول ولم يألف الشجاعة التي تقر بالهزيمة التاريخية (..) غير أنني أقول للمنتصر شيئين: أولا، من مصلحتك أن تجعل السلام محدوداً لأنك ان لم تكن أبياً في النصر وأصررت على القهر فقد تنقلب عليك والتاريخ ليس رهن يديك. ثانياً، أنت مدعو الى كبر التسويات والى التوبة عن تجاوزات أوصلتك الى النصر وكذلك الى الصدق في السلم إذا أوعزك الصدق في الحرب»[١٦]

■ **الموقف الثاني**: ان بعض الموارنة ندموا على الخيار العسكري وعلى حمل البندقية المسيحية وعلى التعاون مع اسرائيل، وأن الأكثرية المسيحية قد اعتدلت في موقفها، وان الكتّاب النصارى هم أكثر العرب تنديداً باسرائيل. ولكنه يقول في مقال آخر أيضاً، موجها كلامه الى المسلمين داعياً إياهم للتسامح مع المسيحيين، حتى، «لا تضطروني ان أتحدث عن أهمية النصارى في لبنان لئلا يستكبروا»[١٧]

■ **الموقف الثالث**: ان الحرب الأهلية علمت المسيحيين أن سيادة لبنان القانونية لا تنفي انتسابه الى المشرق العربي، وأن المسيحيين «متجذرون في العروبة» لا يحتاجون الى شهادة فيها من أحد، لذلك فالشطارة

اللبنانية في الهرب من دمشق ليست أقوى من الدهاء الشامي في جرهم الى دمشق، وان الوحدة يجب ان تقوم على التنوع والحيوية التي أبدع ويبدع فيها المسيحيون اللبنانيون.

ان هذه المواقف الثلاثة تؤكد ضرورة التفريق بين رؤية المسيحية الشرقية ورؤية المسيحية الغربية، بقدر ما تؤكد ان المبادىء الاسلامية شيء والممارسات الاسلامية شيء آخر. كذلك «المحبة الانجيلية» شيء والطوائف المسيحية شيء آخر. بقدر ما تؤكد أن المسيحيين العرب هم من داخل الحضارة الاسلامية بيئة وتراثاً. وأن ما قاله أبو عبيدة في كتاب «الاغاني» ان «شعراء الاسلام: الأخطل ثم جرير ثم الفرزدق»، لم يكن في العصر الذي كتب فيه «الأغاني»، كلاما سياسياً يحتاج الى نفاق اليوم ولا الى تزلف هذا الزمان.

ويخاف المطران جورج خضر، في موقع آخر، من ردود فعل المسيحيين للتطرف الاسلامي الذي تمارسه بعض الجماعات الاسلامية السلفية في لبنان والعالم العربي، إذ يقول:

«لا شك أن على المسيحي أن يفهم الانتفاضة الاسلامية فهي ليست مجرد قيام محرومين أو مغبونين تحت نير تاريخي القي عليهم. انها استعادة كرامة ومجد ضائع وبناء شخصية متكامل هيكلها على ضوء حقيقة الاسلام وقدرته على حل مشاكل الدنيا بسبب من استيعابه لهذه المشاكل كائناً ما كان موقف الفكر النقدي والتاريخي من هذا القول (...) ولكن من جهة أخرى لا بد للمسلم أن يلاحظ المسيحي خائفاً من الفناء (...) قد لا يخشى المسيحي أن يخرجوه من مدى لبنان ولو فرزوه في غير مدى من لبنان. غير أنه يخشى اخراجه من التاريخ وبالتالي شطب الفي سنة من المسيحية كأنها لم تكن»[١٨].

ويؤكد المطران خضر بخوف واضح ومن دون أية مواربة:

«ان مسألة المسيحيين في الشرق هي مسؤولية خروجهم من هامشيتهم في التاريخ العربي الى حضور فاعل وهذا يتعلق بشهادتهم وشجاعتهم، لكنها ايضاً مسألة الاعتراف بحق من اعتبرهم الاسلام ضالين ان يبقوا على ضلالهم».

لكنه يعود الى التساؤل، في بحثه عن حل لهذه المعضلة:

«لست أعرف القالب السياسي لتجنبنا أحدية الحكم واللون والحياة الاجتماعية ولكن لا بد لنا من ابتكار ما ليس فيه سابقة في علم السياسة. جل ما أذهب إليه هو أن الصحوة الاسلامية لا تبدو لي حاملة في طياتها جذور تلك الحضارة الاسلامية العظيمة التي شاهدنا في القرون الأربعة الأولى للهجرة. ان ما يسمى اليوم الأصولية اعني العودة الى (...) أي لون من الوان السلفية هو من الماضوية الغنائية بمكان. وفي كل حال هذا في المجتمعات المختلطة اكراه غير معقول، اذ كيف تقبل الدعوة لترك انجازات حضارية فاعلة في سبيل ما لم يحقق بعد؟ هذا يبدو لنا خلطاً رهيباً بين المثالية النصوصية والفعل الحضاري المنقذ».

وينقلب الخوف عند المطران خضر الى هلع واضح عندما يقول:

«في الجانب الآخر ترى الآن قواعد لمجتمع «مسيحي» منفصل كامل المعالم الايديولوجية. وهذا ينبىء بتعميق الهوة بين المسلمين والمسيحيين في تشنج لم يكن معروفاً في أشد أيام المحنة. نكون، إذا ذاك، قد تغلبنا على الانفصال الاداري لنقع في عزلتين رهيبتين وفي توتر لا ينتهي إلا بذبح الاضعفين أو طردهم، الأمر الذي يعرض المسيحيين للابادة ليس فقط في لبنان بل في كل العالم العربي».

ويأتي الرد الاسلامي على المطران جورج خضر من السيد محمد حسن الأمين الذي يعتبر أن الصراع بين طرفي «الخوف» و «الصحوة» يصلح لأن يكون مادة للتفاعل:

«خصوصاً أن الأقدار المشتركة بين المسيحية والاسلام كثيرة وأساسية، وفرصة الحوار والتفاعل بينهما في ساحة كوطننا لبنان هي فرصة نادرة قد يكون من شأنها أن تقدم للعالم صيغة فريدة في مجال التفاعل واللقاء بين هاتين الديانتين الكبيرتين».

«انني كمسلم يؤمن بالاسلام كعقيدة وكنظام للحياة (شريعة) لا استطيع الأخذ بخيار الصراع، لان الأخذ بهذا الخيار يعني اهتزازاً في مصداقية ايماني بالاسلام وجدارته في مجال التفاعل والحوار. وكمسلم يرى ان لتطبيق الشريعة الاسلامية ساحتها الواسعة في العالم الاسلامي

المترامي الأطراف وما زال كله تقريباً محكوماً لأنظمة غير اسلامية، لا اعتقد أن لبنان هو الساحة المثلى لخوض هذه التجربة بل أرى أن من الواجب في الساحة اللبنانية خصوصاً أن ابرز جانباً من جوانب الاتساع والابداع في أطروحتي الاسلامية من خلال انجاح صيغة التفاعل مع المسيحية. هذه هي وجهة نظري كمسلم لا يتخلى قيد شعرة عن إيمانه الكامل بالاسلام كعقيدة وصيغة حياة كاملة».[١٩]

لكن السيد محمد حسن الأمين يتساءل عمن أوصل الأمور الى هذه الحدية؟ ويجيب:

«ازعم أن المشكلة بهذا الحجم الكبير والخانق لا تتعلق بالاسلام ولا بالمسيحية ولا بطريق مسدود وصلت إليه المطارحات بين رؤيتين مسيحية واسلامية. إذ في الأساس لم تعط الفرصة لحوار معافى. والمؤسسون لنظامنا السياسي لم يخططوا لمسيحية واسلام يتفاعلان ويتكاملان على ارض لبنان، بل خططوا لحلبة صراع واقتتال خارج قيم المسيحية والاسلام معاً».

ويضيف السيد محمد:

«ان المخاوف المتبادلة وخصوصاً الخوف المسيحي هي نتاج تخطيط في صلب هيكلية النظام السياسي أعطى للمسيحي ما يشعره على الدوام بتمايز على نصفه المسلم، وأن عليه ان يظل قلقاً وفي حالة استنفار ضد احتمالات تحرك اسلامي في اتجاه الانتصاف. ووضع المسلم في موقع الشعور بالحرمان على النحو الذي يبقي على العلاقة بينهما متسمة بطابع الحذر والقلق والشك ويحول دون اللقاء والتكامل ـ هذه العملية الضرورية لبناء الأوطان فضلا عن الحضارات».

ولا يجد السيد محمد حسن الأمين جواباً على مخاوف المطران جورج خضر الا بالسير نحو:

«خطوة نقدية متحررة من العقد في اتجاه إعادة النظر في النظام السياسي لتحويله من سور لحلبة صراع بين الطوائف الى إطار لساحة من التفاعل الخلاق الحي بين الأديان، خطوة كهذه هي المفصل الحيوي بين أن ينتهي لبنان وتنتهي معه كل الآمال المعلقة على دوره، وان ينهض لبنان

معافى لاداء هذا الدور الحضاري المميز».

أمام الخوف من الصحوة ينمو خوف آخر عند المطران خضر في ليلة عاشوراء، التي يعتبر أنها باتت في التاريخ رمزاً للفقراء، وقد بدأت رمزاً للعدالة، هو الخوف من انه:

«اذا اكتسب الشيعة ذهنية الحكام، إذا خسروا روحية التمرد ليقيموا في الأرض بلا رهبانية الفاجعة ماذا يبقى من خصوصيتهم؟ اذ ذاك، يعوزني حسين ما من اية طائفة جاء يقول: لا».[٢٠]

انها صيحة رجاء.

يتضح من هذين الموقفين، موقف «الخوف» وموقف «الصحوة» كم يمكن ان تكون الأرضية التي تجمع بينهما مشتركة، وكم أن المسيحية ممثلة بالمطران جورج خضر، والاسلام ممثل بالسيد محمد حسن الأمين، مختلفان في تفسير «الصحوة» وفي معالجة أسباب «الخوف». أما طرق التوصل الى هذه الأرضية المشتركة، التي تبقي صيحة الرجاء المسيحية ـ الاسلامية ضمن تناغم واحد، فلا بد من أن تجتاز الحاجز الأول، وهو الحاجز الأساسي، الذي قد يسمح لها بهدم السدود التي تليه.

لكن أسفاً ما زلنا ضمن حدود صيحة الرجاء.

هوامش

(١٥) المطران جورج خضر ـ «أللبلد فصح ممكن؟» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٤/٢٤.
(١٦) المطران جورج خضر ـ «من سن الفيل والمخيمات» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٥/٢٨.
(١٧) المطران جورج خضر ـ «رمضان والسلام» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٥/١٩.
(١٨) المطران جورج خضر ـ «التمزيق اللبناني امام الرجاء» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٩/٨.
(١٩) السيد محمد حسن الأمين ـ «الاسلام والمسيحية والتمزيق اللبناني» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٩/٢٥.
(٢٠) المطران جورج خضر ـ «من عيد الصليب الى عاشوراء» ـ «النهار» ـ ١٩٨٥/٩/١٥.

٤

كيف يفهم العربي المسلم المسيحية؟

«وقيل لعيسى، على نبينا وعليه السلام:
مَنْ أدّبك؟
قال: ما أدّبني أحد ولكني رأيت جهل
الجاهل فجانبته».

ـ الماوردي ـ «أدب الدنيا
والدين» ـ (١٩٥٥)

كيف يفهم المسيحيـة رجـل عربي مسلم عادي بسيط، لا هو خبير باللاهـوت ولا هو متمرس بالشريعة؟ بل كيف ينظر هذا الرجل العربي المسلم العادي الى المسيحيين الذين يعرفهم ويتعامل معهم؟

يبدأ فهمه البسيط بأن المسيح، عيسى بن مريم، فلسطيني ولد في بيت لحم وهاجر الى مصر وعاش في الناصرة، ولقب بيسوع الناصري ومات في القدس. وقبره هناك الى اليوم. ويعرف هذا الرجل العادي، بحكم اسلامه، أن القرآن الكريم يشيد بالمسيح، وان سورة مريم هي من أجمل ما يرتل، وان الاسـلام يعترف بنبوة المسيح، اعترافاً كاملاً. ويعرف هذا الرجل العادي بحكم عروبته، أن المسيح ولد وعاش وترعرع وتجول ومات في ارض عربية، وان المسيحية نبعت من أرضـها الفلسطينية قبل أن تنتشر في أصقاع العالم. ويعرف هذا الرجل العادي ايضاً وأيضاً، بحكم فطرته، أن المسيحية نشأت هنا قبل الاسلام في بلاده ولا تزال فاعلة فيها الى اليوم. ولا يجد هذا الرجل العربي المسلم العادي أي أشكال في عروبة المسيحيين الذين يعرفهم كأشخاص ومواطنين، ولا في عروبة المسيحية التي يعرفها كدين. فهو يدرك ان المسيحيين العرب هم جزء من ابناء هذه الأرض أولاً، وان ما جرى في بعض مراحل التاريخ من محاولات سلخهم عن هذه الأرض، عن طريق الدين والحاقهم بالغرب، هو أحد المشكلات الرئيسية التي نعانيها اليوم.

من خلال هذا الفهم البسيـط، لا يشعر هذا الرجل العربي المسلم العادي بأية غربة بينه وبين الرجل الآخر ـ العربي المسيحي ـ أو بأي تنـاقض. فكـلاهمـا يعـرفان أن بلادهما كانت ولا تزال تشكل تقاطع حضارات تتكالب عليها القوى منذ ما قبل التاريخ، وحتى جاءها الفتح

العربي وجد فيها قوماً يتكلمون العربية، وقوماً آخرين يتكلمون لغات سامية وغيرها أخرى أهمها السريانية وغيرها كاليونانية. وعندما بشر الفاتحون بالاسلام بشروا به بالعربية، فلم يجد المتكلمون بها من أهل سورية الطبيعية ولا من غير أهلها، أي حرج في اعتبارها لغة سامية نزل بها قرآن كريم، فأخذوها وتعلموها مع الزمن وأصبحوا في طليعة العاملين فيها. وان السياسة التي اتبعها العرب منذ أولى فتوحاتهم، استندت الى آيتين كريمتين. الواحدة تقضي «بأن لا اكراه في الدين»، والثانية بأن على أهل الكتاب، الذين يختارون البقاء على دينهم، بأن «يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون».

وهذا أمر لا غرابة فيه، لأن العروبة كانت واقعاً قائماً قبل الاسلام، واستمرت بعد الاسلام على نحو يعززه دين اسلامي حنيف. لذلك فشلت منذ ذلك الزمن كل المحاولات المتطرفة لخلق انتماء آخر غير قائم على أساس سليم.

ويعرف هذا الرجل العربي المسلم العادي، مدى الاهتمام الاسلامي بصورة السيد المسيح في القرآن وبمكانته في الاسلام عموماً امر له جذور تاريخية تمتد بلا انقطاع منذ نزول الوحي على النبي العربي وحتى أيامنا هذه، وان هناك «مسيحياً عربياً» وردت أقواله في بعض نصوص الأدب العربي في العصر الوسيط، وان كان هذا المسيح ليس بالضبط مسيح الاناجيل ولا هو بالضبط مسيح القرآن. وإذا كان قطعاً لا هو المسيح المسيحي ولا هو المسيح الاسلامي، انما من دون شك هو عملاق مقدس ينتصب فوق هذه الأرض العربية.[٢١]

وماذا يعرف ايضا هذا الرجل العربي المسلم العادي؟ يعرف أن الغزو الأجنبي منذ الحملة الصليبية الأولى الى قيام دولة اسرائيل جاء موجة إثر موجة، وفي سلم أولوياته استعمال سلاح الفتنة الطائفية بين المسلمين والمسيحيين، متجاهلاً أن هؤلاء المسيحيين هم سكان هذه البلاد، والمدافعين عنها قبل الفتح الاسلامي. وكما قاومت الكنائس الشرقية محاولات التغريب التي حاول الغرب أن يجر المسيحيين إليها، قاوم الاسلام العربي محاولات التتريك التي حاول الاسلام العثماني جر

المسلمين إليها. فالتقت المقاومتان معاً في رفض نزع الهوية العربية. وكما حاولت القوى الغربية الاستعمارية فرض حمايتها على المسيحيين العرب، حاولت الخلافة العثمانية ومن بعدها الحركة الطورانية فرض حمايتها على المسلمين العرب، وكل ذلك لصلة المسيحية بالغرب أو صلة الاسلام ببني عثمان. وفي كلتي الحالتين بحجة «حمايتهم» من العروبة.

ان المسيحية الشرقية العربية - في نظر ذلك الرجل العربي المسلم العادي - الموجودة أصلاً في بلاده قبل الاسلام، ترفض تبعية المسيحي للغرب. ومما لا شك فيه ان المسيحي في العالم العربي تعرض في الماضي ويتعرض اليوم للتوجه به نحو الغرب تحت الادعاء بأن اشعاع دينه مصدره روما أو كنتربري أو اسطنبول، بينما أشعاعه هو في أنطاكية والقدس ودمشق والاسكندرية ولبنان بكل مراكزه وأديرته. ومن المؤسف أن كلام البطريرك اغناطيوس الرابع هزيم، بطريرك انطاكية وسائر المشرق للروم الارثوذكس، «بان مشكلة المسيحيين باتت بأن مراكز الاشعاع المسيحي صارت بعيدة عن النبع»، كلاماً صحيحاً. بالاضافة الى أن المسلمين شعوباً وأنظمة يتعاطون ويتعاملون مع المسيحية الغربية والمسيحيين في الغرب، أكثر مما يتعاطون ويتعاملون مع المسيحيين الشرقيين[٢٢].

غير أن لدى المسيحيين العرب هم اساسي يجعلهم يخشون الدولة الاسلامية، بأي مفهوم جاءت. وهذا الهم نتيجة تصور بأن لا دور لهم فيها. وهذا تخوف شرعي - في رأي فيكتور سحاب - لأن هذا التخوف مبني «على التباس بسيط، قد لا ينتبه إليه الكثيرون، وهو ان الاسلام ليس ديناً فقط، بل هو دين وحضارة. وقد لا يمثل الدين سوى نسبة ضئيلة في حياة المسلم، في حين أن الاسلام كحضارة قد يملأ حياتنا كلنا (...) أن المسيحيين العرب ينتمون الى النتاج الحضاري الذي اسميه الحضارة الاسلامية، والذي يحتل في حياة المسيحي العربي نسبة ٩٠ بالمئة، وهناك جزء يختلف فيه المسيحي عن المسلم، وهو الجزء المتعلق بشكل مباشر بمراسم الصلاة»[٢٣].

في أية حال، فهذا الرجل العربي المسلم العادي، توصل بفضل

تبسيطه للأمور وعفويته الأصيلة فيه الى ثوابت واضحة أهمها ان الاسلام شيء والمسلمين شيء آخر، وان المسيحية شيء والمسيحيين شيء آخر ايضاً. ومع أن الواقع الحياتي لا يميز كثيراً مع الأسف بين الدين وممارسيه، إلا ان ذلك لم يجعله يتردد لحظة واحدة في اعتبار المسيحيين الذين يسكنون أرضه وبلاده هم في أرضهم وبلدهم، لا ضيوفاً عند أحد ولا في حماية أحد ولا يحملون منة لأحد.

ان رحابة العالم العربي الجغرافية والتاريخية لم توصد يوماً في وجه المسيحي العربي، مهما ضاق أفق الأنظمة السياسية ومهما ركب حكوماته الهاجس الأمني. والتاريخ علمنا أن المسيحي كان يهرب من الحكم الاسلامي حين يجور ويضطهد ويلجأ الى حماية الأجنبي. ولكنه كان يعود دائماً الى الانسان العربي المسلم، فيجد عنده الرحابة الانسانية ويلقى منه احترام حقه كمواطن. وهذا المد والجزر التاريخي خلق شعوراً لدى المسيحي بأنه أقلي، معقد بأقليته وهامشي محدود في تطلعاته. لكن التاريخ يشهد أن ما من مسيحي أراد ان يكسر عقدة الأقلية والهامشية ليخرج الى رحابة المواطنية العربية المتساوية مع الأكثرية المسلمة إلا وحقق ما أراد من غير حرج ولا منة، بل باعتزاز كبير. وفي الخمسين سنة الأخيرة، على الأقل، أمثلة كثيرة على صحة هذا القول.

لقد اثبت الاسلام كحضارة عبر التاريخ، ان النصارى كان لهم دائماً مكاناً في الدولة الاسلامية. ومن الملاحظ - والمثبت تاريخياً - ان المسيحيين لم يعانوا من الاضطهاد إلا في ثلاث حقب: الأولى - الحقبة السابقة للاسلام أيام السيطرة البيزنطية. الثانية - الحقبة الصليبية. الثالثة - الحقبة الراهنة، وهي حقبة السيطرة الاوروبية[٢٤].

ثم ان الرجل العربي المسلم العادي يعرف، بحكم احتكاكه بمواطنه المسيحي عبر الالف والاربعمئة سنة الأخيرة، ان المسيحي العربي وخصوصاً الانطاكي الارثوذكسي، لا يحس بأي تناقض بين مسيحيته ومحيطه المسلم، على الرغم من الجهد الذي بذل في الحرب اللبنانية للفصل بينهما، وبقيت الأغلبية الساحقة من الارثوذكس في لبنان فخورة بالمحتوى العربي الصادق والأصيل لوطنها لبنان.

وعلى الرغم من «بساطة» الرجل المسلم العادي، فهو لا يرى ما يبرر له جحوده لحق أخ مواطن ينتمي الى الدين الآخر في المساواة التامة وفي المشاركة الكاملة في شؤون الوطن. لكنه في الوقت نفسه يرفض لأي مواطن، مهما كان انتماؤه الديني، حقه فيما يزيد على المساواة والمشاركة. فليس من حق مواطن ان يطلب أكثر من المساواة، ولا يملك أي مواطن ان يعطي أو يضمن أو يرضى لغيره بأكثر منها، باسم تفريغ الخوف من طغيان الأكثرية. فالخوف عقدة لا واقع ووهم لا حقيقة، وهو لا يداوى بالتطمينات والامتيازات، بل بالمساواة التامة القانونية العادلة مع باقي المواطنين.

ان غالبية سكان الهلال الخصيب ومصر كانوا يدينون بالمسيحية، وقد اعتنقوا الاسلام بأفواج متلاحقة، منذ القرن الأول من الهجرة بملء حريتهم، في حين ان مَنْ بقي من هؤلاء النصارى جعلهم شهود عدل عبر التاريخ. لأن وجودهم كأهل ذمة في الماضي كان مبنياً على قاعدة الشرع وليس على الشعور الذي من طبيعته ان يتغير، انما على سماحة الاسلام وانسانيته التي جاءت في القرآن. وهو الدين الذي اقر لغير المسلمين، ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة، بل وأيضاً بالمواطنية الشاملة في عصرنا الحاضر، الذي زال فيه نظام الذمة، لكي يحل محله نظام الحريات العامة، المنطوية، لزاماً، على مبدأ المساواة التامة في المواطنية[٢٥].

ان خوف المسيحي من طغيان الأكثرية العددية المسلمة يستند الى التصنيف الطائفي سياسياً، لا التصنيف السياسي حزبياً كما هو معمول في الأنظمة الديموقراطية. ومن شأن مثل هذا الخوف ان ينفي الانتماء القومي، بحيث يصبح الدين تياراً معبراً عن مختلف المصالح السياسية والاجتماعية. واذا استقرت نظرة الخوف لتفصل بين اقلية دينية وأكثرية دينية، خارج الانتماء القومي والعامل الوطني، فهي تطرح اسئلة يصعب الاجابة عليها، أهمها ماذا تفعل الأغلبية باغلبيتها لتبدد خوف الأقلية؟ هل تمنحها امتيازات تفوق حقها في المساواة، أم تطلب منها الخروج من معتقدها؟ وهل يمكن ذلك عملياً؟ وهل من الانصاف ان يفرض عليها؟

لكن مثل هذه الاسئلة تصبح أقل صعوبة عندما يدرك المواطن العربي المسلم العادي أن «الخوف المسيحي» كان يشجعه استعمار الدول المسيحية ثم تولت الحركة الصهيونية هذه المهمة. وما ذلك الا لشرذمة الطوائف واضعاف المنتمين إليها وتفكيك وحدة المجتمعات العربية والدول العربية، وبذلك يسهل عليها استمرار البقاء في هذه المنطقة لا على حساب شعب فلسطين فحسب بل أيضاً على حساب الشعوب العربية جميعاً.

ومن الملفت للنظر ان استعمار الدول المسيحية ونفوذها السياسي في المنطقة اتخذ وجهاً آخر يمكن ان يسمى بالجاذبية الاوروبية ـ الاميركية ـ الغربية، والتي ليس لها وجه مسيحي. هذه الجاذبية لا تقتصر على المسيحي العربي ولا يفوق الاهتمام بها من جانب المسيحيين الا الاهتمام بها من جانب العرب المسلمين، والكثير من مواطني دول العالم الثالث. فبدلا من أن تفيد هذه الجاذبية في البناء القومي للأمة العربية وفي النظرة الاجتماعية الاصلاحية للمواطن وفي التقدم التكنولوجي والعلمي للبلاد وفي السعي للمساواة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية في المجتمعات العربية الغنية والفقيرة، نرى انها ـ وعلى الرغم من الاحتكاك الطويل معها ـ لم تفعل أكثر من تعميق صفة التغريب الثقافي والحضاري. هذا «التغريب» الذي أفرز ما يمكن ان يسمى بالنخبة الجاهلة بتراثها العربي وأصالتها القومية مقلدة ومتعصبة لكل ما هو غربي، من دون ان تكون منفتحة الذهن أمام كل التيارات، ديموقراطية التفكير، اختيارية النماذج الصالحة، أصيلة المنبت، واثقة الخطى، صلبة الأرض. واذا بالجاذبية الغربية تصل الى حجم الكارثة حين أصبحت عاملاً من عوامل الانفصال على أساس ديني.

ان الوقوف في وجه الصهيونية العالمية أمر أساسي لا مجال لشرح أهميته هنا في الحديث عن الجاذبية الاوروبية التي يجب ان لا نقلل من خطرها، لان فيها اغراء التقدم ازاء التخلف واغراء الحرية ازاء التعصب، واغراء المواطنية الراقية ازاء المواطنية الذليلة. وما كانت الجاذبية الاوروبية لتفزعنا اذا كنا جزءاً من انسانية الأحياء

الحضاري، ومن انسانية الاستقلال والسيطرة على الذات. ولكنها تفزعنا اذا لم نستطع ان نمنع تشويهها لاصالتنا ووطنيتنا وتاريخنا وثقافتنا. ونحن لا نستطيع محاكاتها والتفاعل معها والاستفادة منها الا اذا واجهناها بثقة في النفس، وكرامة الفخور بتراثه، وبانفتاح المتطلع ابدا الى الخير كيفما وأينما وجد.

وفي المشرق لا يطرح الرجل العربي المسلم العادي البسيط اطلاقاً موضوع وطنية مواطنه المسيحي ولا كنيسته الشرقية. فهو يعرف ان الكنائس الشرقية اصلا والتي تبعت الغرب ولحقت بروما، لا تزال كنائس شرقية باصولها وفروعها. فالكنيسة المارونية، التي من الممكن ان يقال فيها أنها أكثر الكنائس الشرقية تغريباً، لا تزال كنيسة مارونية ولم «تتلتن» (أي لم تصبح لاتينية، حسب تعبير البطريرك هزيم). كذلك كنيسة السريان الكاثوليك والسريان الارثوذكس والأرمن الارثوذكس والأقباط الارثوذكس. فكل هذه الكنائس تدّعي وصلا بانطاكية، وكل بطريرك من بطاركتها هو بطريك انطاكية وسائر المشرق. فالكرسي الانطاكي هو دليل على شخصيتها وأصالتها المشرقية.

لقد سعى الغرب لحجب المسيحية العربية الشرقية وعدم الاعتراف بها. فهي لم تكن جزءاً من هذا الغرب، بل كانت، ومنذ البداية، تحاول الاندماج النهائي بالمشرق والتشكل كجزء منه. (...) وهذا ما يؤكد على حقيقة كاد غبار الحرب الاهلية الطويلة في لبنان، ان يحجبها، وهي أن المسيحية العربية هي جزء عضوي من الواقع الاجتماعي والثقافي العربي والاسلامي، وهي بالتالي لا تستطيع الانفصال عنه، والاّ فقدت هويتها[٢٦].

ثم ان الرجل العربي المسلم البسيط يعرف أنه على الرغم من التقلبات السياسية التي عصفت في المنطقة العربية، وعلى امتداد القرون الستة الأخيرة من الحكم العثماني، بقي الارثوذكس ـ ورثة بيزنطية سياسياً وجغرافياً ـ خارج أي نفوذ اجنبي، بما في ذلك النفوذ الروسي الذي لم يدم طويلا. ومنذ زوال القيصرية الروسية وانتصار البلشفية ـ أي بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ـ لم تتبناهم دولة ولا هم

التمسوا حماية أجنبية، بل حملوا مع بقية المسلمين والمسيحيين لواء قضية القومية العربية والقومية السورية والوحدة والعروبة طوال السبعين السنة الأخيرة على الأقل. فحاربتهم فرنسا الدولة المنتدبة على سورية ولبنان، وبريطانيا المنتدبة على فلسطين والعراق والاردن، وحاولت ان تقضي عليهم فرنسا بالكثلكة وبريطانيا بالبروتستانتية. فصمد الارثوذكس، رعاة وكنيسة، في وجه المحاولتين. وعلينا ان لا ننسى ان الحملة الصليبية الرابعة قامت اصلا ضد الكنيسة الارثوذكسية في محاولة أخيرة لجر الكنائس الشرقية الى السيطرة الاوروبية الغربية، أكثر مما قامت ضد المسلمين. وهي قتلت من المسيحيين بقدر ما قتلت من المسلمين، ودمرت من كنائس وأديرة المسيحيين أكثر مما دمرت من مساجد وممتلكات المسلمين.

ومن الواضح في تاريخ بلاد الشام، ان الروم الارثوذكس انفصلوا عن بيزنطية مع الفتح العربي انفصالاً كلياً. ويعطي المطران جورج خضر مثلين على ذلك. «الاول ـ عندما استعاد صلاح الدين الايوبي انطاكية من الفرنج، أعاد معه البطريرك الارثوذكسي اليها. أي ان الارثوذكس اتخذوا موقفاً واضحاً مؤيداً للمسلمين. الثاني ـ عندما استعاد الروم سورية في القرن العاشر، كان البطريرك الانطاكي الارثوذكسي آنذاك مؤيداً للحمدانيين ضد الروم»[٢٧].

ولأن ليس في المسيحية الارثوذكسية، لا في التاريخ ولا في العقيدة، ما يسمح بأي لون من الوان الخلط بين أمور الدين والدنيا، ترك للارثوذكسيين حرية الخيار السياسي، فاتيح لهم الاستقلال عن المسيحية الغربية واختيار المواقف الحزبية أو السياسية التي يريدونها باعتبارهم مواطنين لاطائفيين. لذلك كان ويبقى عند الارثوذكس الشعور الدائم بأنهم جماعة تحس بأنها كنيسة ولا مجرد طائفة. هذا الاحساس الذي لا يزال يشكل مجابهة سياسية مستمرة بين الارثوذكس والمسيحيين الاخرين التابعين لكنائس الغرب، اسفرت عن حالتين:

اما الانتماء الى مواطنية الدولة، فتعرف نفسك بتعريف المواطن، أو الانتماء الى الهوية الدينية، فتعرف نفسك بتعريف طائفتك. وبتعبير آخر

اما أن تقف في مواجهة حقوقك المشروعة كمواطن، فتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله. أو تسقط في جدلية الخوف والغبن، فتطالب الأجنبي بحمايتك كأقلية من الأغلبية، التي هي شريكتك في وطنك.

هوامش

(٢١) الدكتور طريف الخالدي ـ «المسيحيون العرب» ـ اللاهوت المسيحي وعلم الكلام الاسلامي ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١.

(٢٢) البطريرك اغناطيوس الرابع هزيم ـ «الأمل الوحيد هو المقاومة الوطنية اللبنانية» ـ «السفير» ـ ١٩٨٥/٣/١٦.

(٢٣) فيكتور سحّاب ـ «مَنْ يحمي المسيحيين العرب» و«العرب وتاريخ المسألة المسيحية» ـ الوحدة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨٦.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) الدكتور ادمون رباط ـ «المسيحيون العرب» ـ المسيحيون في الشرق قبل الاسلام ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١.

(٢٦) الياس خوري ـ «المسيحيون العرب» ـ مقدمة الطبعة الثانية ـ المصدر نفسه.

(٢٧) المطران جورج خضر ـ «المسيحيون العرب» ـ المسيحية العربية والغرب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١

٥

التبرؤ من الدين أم التبرؤ من القومية

«أيها العرب غير المسلمين تناسوا ضغائنكم. انتم الاولون الأكثر تنويرا وثقافة، وعليكم أن تجدوا الوسيلة لتوحيد الصفوف».

ـ عبد الرحمن الكواكبي ـ (١٩٠٠)

ان عملية البحث عن الذات التي يخوضها لبنان اليوم، يجب ان تبدأ بادراك نوعية العلاقة بين الاسلام والمسيحية والقومية العربية، عن طريق رؤية أشمل للعلاقة بين المسيحية العربية والاسلام العربي. هذه الرؤية التي يجب ان توضح كل الوضوح، ان المسيحية العربية ومن بعدها الاسلام العربي هما جانبان متميزان يشكلان معاً الحضارة العربية، لا حضارتان منفصلتان تتصارعان شكلاً ومضموناً، وهما اسهام من اسهامات الحضارة العربية في حقب تاريخيه محددة نحو اقطار وشعوب معينة. ان الاسلام أو المسيحية علاقة انتماء الى دين (أي عقيدة). اما العروبة فعلاقة انتماء الى أمة بشطري تكوينها: الشعب والارض، وما أثمر شطراها على مدى التاريخ من حضارة. انها انتماء الى وضع تاريخي بينما الدين وضع الهي.[٢٨]

عندما نقول هذا الكلام ـ الحقيقة، يسقط، في عملية البحث عن الذات اللبنانية، اسلوب التعالي التقليدي على العرب، وممارسة الشوفينية الضيقة، والمغالاة في التعصب الوطني والديني، وتكرار التساؤل عن هوية لبنان القومية. وعندما يسقط هذا الاسلوب يتوقف الجدل حول عروبة لبنان. ومهما حل بالعرب من تقهقر وذل وانحطاط وتمزق، فان لبنان شريك في كل هذا ولا خيار له فيه.

فمن ادراكنا ان المسيحية دين عربي والاسلام دين عربي، نعرف ان المسيحية السائدة في اوروبا اليوم هي فهم الشعوب الاوروبية وممارستها للمسيحية (على الرغم من وحدة النصوص). كما ان الاسلام السائد اليوم في جنوب شرق آسيا مثلا ـ هو فهم الشعوب الاندونيسية والمالاوية وممارستها للاسلام (على الرغم أيضاً من وحدة النصوص).

فلا خلاف اذن على النصوص، وإنما الخلاف على الممارسة. والممارسة وحدها هي التي تجعل هذه الديانة أو تلك، عربية مثلا أو صينية أو اميركية.

فالمسألة ليست كيف عاش المسيحيون تحت حكم هذه الدولة أو تلك بعد الاسلام، وكيف ساد العدل والمساواة أو حل الظلم والاضطهاد في ظل هذا الحكم أو ذاك، بل المسألة هي واقع العلاقة بين المسيحيين العرب والمسلمين العرب والقومية العربية في ما يواجهونه معا من مشكلات الواقع المضطرب الذي يعيشونه معا. وهي مشكلات تتعلق بالديموقراطية والتقدم والتحرر والمساواة الاقتصادية والوحدة وما الى ذلك، ولا تميز بين المسيحي منهم والمسلم. ولذلك يجب ان يخلو أي خلاف من الصفة الدينية، لينحصر بالصراعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والايديولوجية التي هي اعقد وأشمل، وهي صراعات مشتركة تنتفي فيها الصفة الطائفية.

هنا يجب ولوج باب الدعوة للتغيير في العلاقة بين المسيحي العربي والمسلم العربي - على أساس المشاركة في مواجهة المشكلات المشتركة، التي هي مشكلات القومية العربية بهمومها وطموحاتها وعدالة قيمها. وبذلك تصبح القومية العربية هي القاسم المشترك الأعظم بينهما. ان الخبرة التاريخية للمسيحيين والمسلمين في علاقتهم المتفاعلة معاً، ماضياً وحاضراً، غنية بمؤشرات كثيرة تتراوح بين السلبية والايجابية. لكن ليس في تاريخ هذه العلاقات ما يدل على ان العلاقة بين المسيحية العربية والقومية العربية لم تكن ابدا علاقة استعباد أو علاقة ابتلاع. فلا القومية العربية مطالبة - مسيحياً - بالتبرؤ من علاقتها التاريخية القديمة بالاسلام، ولا المسيحية مطالبة - مسيحياً - بالتبرؤ من عروبتها.(٢٩)

وهكذا يستطيع أي انسان مميز غير مكره ان يختار الاسلام أو المسيحية ديناً، أو ان يختار اديانا غيرهما أو أن يكفر بكل الأديان. اما العروبة فعلاقة انتماء الى وضع تاريخي تدرك العربي منذ مولده وتصاحبه حتى وفاته ولو لم يكن مميزاً، ولو لم يدركها، ولو كفر بها. لا

يستطيع أي انسان ان ينتمي الى العروبة أو أن ينسلخ منها، ولو أراد. اذ الانتماء الى العروبة وليد تطور تاريخي سبقه ولحقه، فكان عربياً بغير ارادته، أو سبقه ولم يلحقه فلم يكن عربياً ولو أراد. لا حيلة له في الحالتين. وهل اختار أحد والديه؟ وهل اختار احد وطنه؟(٣٠)

على هذا المقياس ذاته نجد ان الأنظمة العربية، في الدول ذات التوجه القومي، أو ذات الدعوة الكيانية، أو ذات التعصب القطري، أو ذات الطموحات الوحدوية، تمارس التمييز، بشكل أم بآخر، ضد كل مبادىء القومية العربية الأساسية. وهذا بحد ذاته يجب ان يبرىء القومية العربية من ممارسات الدول العربية القطرية منها والقومية تجاه مواطنيها المسيحيين والمسلمين على السواء، كما انه يبرىء هؤلاء المواطنين من مسؤولية أزمة الأديان الرسمية كما تعبر عنها وتمارسها هذه الأنظمة. فالمسيحية الرسمية في أزمة، والاسلام الرسمي في أزمة. والازمة هي في علاقتهما بالانظمة الحاكمة وتوجهاتها وممارساتها.

ان الذين يأخذون على الفكر القومي العربي أنه يستطيع ان يفرق حتى الآن بينه وبين الفكر الاسلامي، مرده الى الخلط الذي ما زال قائماً بين العروبة والاسلام. ان المعادين للفكرة القومية من المسلمين لا يزالون ينتظرون من العرب المسيحيين ان يتخلوا عن نصرانيتهم حتى يصبحوا عرباً. كما يتوقع المعادون للفكرة القومية من المسيحيين، ان تتخلى الأكثرية العربية المسلمة عن اسلامها حتى تصبح أهلا لحمل لواء فكرة القومية العربية. لكن كل هذه التوقعات سقطت عند المواجهة التاريخية الداعية باستمرار الى وجوب التمييز باستمرار بين العروبة كقومية وبين الاسلام كدين. لأن تحديد من هو العربي بقي محصوراً في حدود البلدان التي تتخذ من العربية لغة الفكر والثقافة، وبالعروبة موضوع اعتزاز، مسلما كان أو غير مسلم، وفي حين يجب ان يبقى تحديد المسلم محصوراً بمن كان مخلصاً في اسلامه سواء أكان عربياً أم غير عربي، وفي أي بلد أقام وأي لغة ينطق.

لذلك قد يتعدد الانتماء الديني (أي العقائدي) في الأمة الواحدة بدون ان يمس التعدد وحدة الأمة. وفي القرآن عشرات الآيات التي تنظم

العلاقة الاجتماعية بين المنتمين الى اديان متعددة في الأمة الواحدة وتوصي برعايتها. والاسلام لا يدعو اهل الكتاب في المجتمع الواحد الى التخلي عن دينهم والانتماء إليه. لا يدعوهم إليه بل يدعوهم معه. ليعيشوا معاً على كلمة سواء بينهم جميعاً على ما هو مشترك في الأديان السماوية. أما فيما بينهم فلا سيطرة ولا هيمنة ولا استعلاء ولا قهر. لا من جانب المسلمين ولا من جانب أهل الكتاب.[٣١]

ان المواجهة التاريخية نفسها مدعوة لتحد كبير، يحمل عبئه الأكبر العرب المسلمون، المطالبون بأن يوفروا للمسيحيين العرب الاطار القومي الصحيح للعمل الوطني المشترك. فبذلك يصلون الى نوع جديد من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. لكن الذين يجددون الاسلام من روح المعاصرة الضاربة في أعماقه، يجددونه من حقه في الاستمرار والبقاء. لذلك فعلى العرب المسلمين ان يقدموا للعرب المسيحيين طرحاً جديداً للفكر القومي العربي الوحدوي، واضعين بذلك حداً للخوف المسيحي من العروبة. ولا يمكن ان يعاد للقومية العربية نضارتها وجدليتها في عصر الردة الدينية والسلفية المتعصبة والطائفية المقاتلة الا اذا أعاد الكتاب والمفكرون المسلمون طرحها مجدداً على الأسس المشار إليها.

إذا كان التاريخ شاهداً صادقاً، فعليه أن يؤكد بواسطة العرب المسلمين - من كتاب ومفكرين - ان رعايا الدولة المسلمة من نصارى ويهود لم يعرفوا من الأمن والاحترام والحرية ما عرفوه وما نعموا به في ظل الاسلام (راجع كتاب برنارد لويس «يهود الاسلام»). ان التاريخ لا يعرف عصراً من عصور الاسلام وضعهم في خانة «الاقلية». فهذا التعبير اخترعه الاستعمار الاوروبي - البريطاني والفرنسي - حيث نصت صكوك الحماية والانتداب على البلاد العربية، بأن من مهام هذا الاستعمار «حماية الاقليات». أما الاسلام في عدالته وحكمته فلم ير فيهم الا مواطنين أحرار.

وإذا كان الاسلام، سمى النصارى واليهود «أهل الكتاب» فتكريماً لهم، وتفريقاً بينهم وبين المجوس المشركين. وإذا كان سماهم «أهل

الذمة» فذلك تشريفاً لهم، لأن هذا التعبير يعني انهم في ذمة الله وذمة رسوله وذمة المسلمين. واذا فرض عليهم الجزية، فذلك أسوة «بالزكاة» التي فرضت على المسلمين، فكلتاهما ضريبة تتقاضاها الدولة لصالح المجتمع. لكن من المؤسف ان التيار الاسلامي المتطرف الزاحف بأكثريته لا يميز بين هذه الخصائص ولا يرى ان المعاصرة والاسلام لا يتناقضان فاقام الدليل على أنه، على العموم لا يرجو للديموقراطية خيراً ولا يريدها، ولا يرى ان قضية تطبيق الشريعة هي قضية اجتماعية لا قضية دينية[٣٢].

ان مستقبل العلاقة بين القومية العربية والاسلام، مرهون بأمرين: الأول هو بلورة الحركة القومية العربية من ضمن صراع ذي أفق تاريخي علماني ديموقراطي، والثاني هو قيام ثورة في الفكر الديني الاسلامي تنسجم مع حقائق العصر، عصر العقل والعلم والحرية. فبذلك يسقط التداخل بين مفهومي العروبة والاسلام، ويتعذر على مختلف الفئات توظيف هذا التداخل لخدمة مواقعها الفكرية وحركاتها السياسية. ومن يراجع تطور الفكر القومي الحديث يلاحظ ان العرب المسيحيين كانوا في مقدمة الذين حاولوا انقاذ مفهومي العروبة والاسلام من التداخل وايضاح الفصل بينهما.

على ان هذا كله يقودنا الى مجموعة من التساؤلات وهي:

١ - ما هو الخلل في القومية العربية الذي يجعل من الصعب على العرب ان يجمعوا على أمر واحد مع الشعوب الاسلامية؟
٢ - ما هو الخلل في القومية العربية الذي أدى الى شطر العرب وانظمتهم الى معسكرات متنافرة؟
٣ - ما هو الخلل في القومية العربية الذي يفقدنا الكثير من كفاءاتنا البشرية التي تهجرنا الى بلاد أخرى، وتزيد من افقارنا وتخلفنا؟
٤ - ما هو الخلل في القومية العربية الذي يجعل ثرواتنا الفريدة نهبا للناهبين، عربا وأجانب؟[٣٣]

تساؤلات كهذه لا يجاب عليها تقليدياً بالقاء اللوم على الامبريالية والاستعمار، تهرباً من المسؤولية بل بالقول ان العلاقة بين القومية

العربية والاسلام لا يمكن وعيها وعياً صحيحاً إلا اذا انخرطنا صادقين في معارك التحرير: تحرير الانسان وتحرير الأرض. الثوروي العربي الأصيل، هو الثوروي المسلم الأصيل والثوروي المسيحي الأصيل. وأصالة الثوروي العربي تعني، فوق كل شيء، العمل من أجل التغيير، ولا تعني حمل السلاح وقطع الرقاب. والثوروي العربي هو الذي يدرك، مهما كانت طائفته ومذهبه، أنه في خندق واحد مع ثوروي عربي آخر لا يقل عنه أصالة ولا يزيد عنه وطنية مهما كانت ايضا صفته الطائفية. وفي داخل هذا الخندق لا حاجة للجدل والتناظر في هوية الثوار، لأن المهمة الأكثر أهمية والحاحاً وأشد استيلاء على العقل والنفس هي مهمة التحرير. والعربي الأصيل هو الذي يرهن نفسه لهذه المهمة.

هنا يجب التأكيد أن التناقض بين العروبة أو القومية العربية وبين الاسلام تناقض مفتعل كل الافتعال، وان العلاقة بينهم تتجاوز المفهوم العقائدي للاسلام الى المفهوم الحضاري الواسع، ولا تتناقض أبداً مع وجود سمات مميزة لمفهومي القومية العربية والاسلام.

ولا مجال للخلط بين علاقة الانتماء الى العروبة وعلاقة الانتماء الى الاسلام لا في الاشخاص، ولا في المضمون ولا في حدود الانتماء من الزمان او المكان. وما تزال علاقة الانتماء الى الاسرة، أو الى القرية، أو الى الحزب، قائمة بجوار الانتماء الى الدولة أو الى الوطن أو الى الشعب بدون خلط أو اختلاط. فلا يقوم لدى الشعب العربي سبب للخلط بين العروبة والاسلام.[٣٤]

فالمشكلة هي في اخفاق العديد من المفكرين القوميين في الطرح العلماني لمفهوم القومية وفي تردد بعض المفكرين الاسلاميين في الاستجابة لضرورة التجديد والاصلاح، بحيث تصبح العلاقة تكاملية تعتمد على طرح مفهوم صحيح للقومية العربية، وعلى استيعاب الفكر الاسلامي الجديد لضرورة طرح اسلام العصر، اسلام الحداثة والتغيير، صاحب الامكانات الثورية التي كانت له في الماضي وفي الحاضر.[٣٥]

ويقول الدكتور عصمت سيف الدولة ان الاسلام ينظم في حياة اجتماعية كاملة علاقات الناس فيها على أساس من انتمائهم الى مجتمع

واحد بما يحفظ للمجتمع امته ووحدته، ويساوي بين المنتمين اليه بدون مساس تعدد علاقات الانتماء الديني بين افراده، ويؤكد على ذلك «أن بدلالة كلمة الامة في لغة القرآن، يكون كل العرب منتمين الى امة عربية واحدة، حيث يكون مميزهم عن شعوب وامم اخرى... ما يميز الأمم عن بعضها البعض من وحدة اللغة (... أو وحدة الأرض والتاريخ والأمل والعادات والرغبة في الحياة المشتركة...). وما دام ينكر المسلم (...) ان كل جماعة متميزة (...) هي أمة، فكيف بالمسلم ينكر على جماعة قومية الانتماء انهم امة. والأمة ما تتميز بوحدة العلاقة القومية، لا تتشابه ولا تتعارض ولا تتناقض مع الأمة كما تتميز بوحدة العلاقة الدينية. فلا تتشابه ولا تتعارض ولا تتناقض «الامة العربية» مع «الامة الاسلامية» (...) كل من الانتمائين قائم، لكن كل منهما ذو مضمون مختلف».[٣٦]

إذا عدنا الى الحالة اللبنانية الخاصة في البحث عن الذات والهوية، فلا يسعنا إلا ان نتوقف ونتوقف طويلا عند الذي قاله السيد محمد حسين فضل الله في معرض وصفه للحالة اللبنانية: «ان المشكلة في لبنان في عمقها ليست فقط مشكلة النظام في لبنان، بل هي مشكلة الانسان الذي تحول الدين عنده الى حالة طائفية تشبه الحالة العنصرية، مما جعل المسألة تحتاج الى حالة نظامية وسياسية منفتحة تجعل الوعي الديني وعياً منفتحاً على الآخرين في مواقع الخلاف من دون أية عقدة طائفية».

ويزيد السيد محمد حسين فضل الله في وصفه للحالة اللبنانية، بشيء من القسوة والكثير الكثير من الصراحة والأمانة، حين يقول: «ان اللبنانيين في واقعهم السياسي الحالي هم أصغر وأضعف من أن يقسموا بلدهم أو يوحدوه، لأنهم باعوا ارادتهم للآخرين، وباعوا عقولهم للآخرين، ولهذا فان مسألتهم في ما يريدون، هي ما يريده الآخرون لبلدهم».[٣٧]

ومن المؤسف حقاً ان اللبنانيين اسقطوا استقلالهم كما اسقطوا استقلالية قرارهم، عندما دخلت المدرسة الاسرائيلية في بعض اتجاهات التفكير السياسي الماروني، الذي ولد لدى الأطراف اللبنانية المسلمة

عقلية «اسلمة الفتوحات». فأصبح الواقع السياسي اللبناني أضعف من أن يتيح للبنانيين التعبير عن أية ارادة توحيدية، وأصبحوا هم أسرى «الحالة العنصرية» ـ كما سماها السيد فضل الله ـ وكأنهم مواطنون بيض أو زنوج في جنوب افريقيا.

على ان العروبة، على ما فيها من تمزق وانكسار وعفن وتخلف وحدها قادرة على احتواء المسيحي اللبناني والمسلم اللبناني، في وطن لا يكون الولاء فيه مشروطاً لذاته الأبدية السرمدية، ولأنه ليس الوطن الذي يجب ان تنتهي عند حدوده مطامحهم وأحلامهم. أنه جزء من وطن أكبر وحلم أكبر وحدود أوسع وولاء غير مشروط ولا مؤقت.

وما الاستسلام امام شراسة الهجمة الطائفية والتسليم بانحسار القومية العربية إلا ردة من الردات التي تمر بها كل شعوب العالم. ولا يكون الانتصار على هذه الردة إلا بالحوار المخلص الرائد بين مواطنين وطنيين، مسيحيين ومسلمين، لا يتجاهلون الدين، وإنما يؤكدون وحدة الانتماء وشراكة المصير وضرورة التعايش الحقيقي، لا المزيف ولا المصطنع، الذي ولد همجية الحرب اللبنانية.

ان لا معنى لأن يوضع سكان منطقة تمتد من المحيط الى الخليج أمام الاختيار بين ان يكونوا عرباً أو يكونوا مسلمين. أنهم جميعاً عرب وعروبيون، لا بالفصاحة ولا بالنسب ولا بالدين، بل باللغة والثقافة والتاريخ والمصير الواحد والمصالح المشتركة. كلهم عرب أو مستعربون، منهم المسلمون وهم الأغلبية ومنهم مسيحيون وأتباع ديانات أخرى وهم أقلية. انه لا معنى لذلك مثلما انه لا معنى لوضع سكان ايران أو باكستان أمام الاختيار بين ان يكونوا مسلمين وبين ان يكونوا ايرانيين أو باكستانيين. كما أنه لا معنى لأن يوضع الانكليز مثلا أمام الاختيار بين انكليزيتهم وبين المسيحية. الانتماء الى وطن والى قومية شيء، واعتناق دين من الأديان شيء آخر.[٣٨]

ان المشكلة الأساسية في الحديث عن المسيحيين العرب ومستقبلهم ـ على حد تعبير الدكتور قسطنطين زريق ـ ليست بين المسيحية والاسلام، ولا بين المسيحيين والمسلمين بصفة مطلقة، «وانما هي بين الرجعيين

والتحرريين في هذا الجانب أو ذاك. وتتعقد هذه المشكلة، ويسودّ وجه المستقبل ويشتد خطره كلما قويت الرجعية في احد الجانبين أو فيهما معاً. وعلى العكس تهون المشكلة ويهون الخطر ويزهو وجه المستقبل كلما قويت التحررية في أحد الجانبين أو فيهما معاً، وكلما تماسك التحرريون عبر الحواجز القائمة بينهم وتعاضدوا وتعاهدوا على النضال المشترك ومضوا فيه قدماً».[٣٩]

هوامش

(٢٨) الدكتور عصمت سيف الدولة ـ «عن العروبة والاسلام» ـ سلسلة الثقافة القومية (٢) ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨٦.

(٢٩) سمير كرم «القومية العربية والاسلام» ـ بحوث ومناقشات الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١.

(٣٠) الدكتور عصمت سيف الدولة ـ المصدر السابق.

(٣١) المصدر نفسه.

(٣٢) خالد محمد خالد ـ مقال في «الاهرام» ـ ١٩٨٥/٨/٢٦.

(٣٣) قسطنطين زريق ـ «القومية العربية والاسلام» ـ بحوث ومناقشات الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١.

(٣٤) الدكتور عصمت سيف الدولة ـ المصدر السابق.

(٣٥) الدكتور عبد العزيز الدوري ـ «القومية العربية والاسلام» ـ بحوث ومناقشات الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١.

(٣٦) الدكتور عصمت سيف الدولة ـ المصدر السابق.

(٣٧) الشيخ محمد حسين فضل الله ـ حديث في جريدة «الشرق الأوسط» ـ ١٩٨٥/٩/٦.

(٣٨) الدكتور محمد عابد الجابري ـ «العروبة والاسلام: لماذا الثنائية؟» ـ مجلة «اليوم السابع» ـ باريس ـ ١٩٨٥/٩/٣٠.

(٣٩) الدكتور قسطنطين زريق ـ «المسيحيون العرب» ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١.

٦

عودة الروح القوميّة

«ليست العـربية باحدكم من أب ولا أم وإنمـا هي باللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»

ـ حديث شريف ـ

الحديث عن القومية العربية بحاجة الى تجديد اليوم، وخاصة إذا ما قارناها بما كانت عليه بعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن فتر الحماس في العمـل السياسي والفكري للقومية العربية وللحديث عنها. لقد كان الفكر العربي يعتبر القومية العربية هي أساس التقدم ويعتبر الوحدة العربية هي اساس النهضة وهي الهدف الأول والأكبر. إلا ان الحديث استمر اليوم عن النهضة والتقدم من دون أي مضمون قومي أو وحدوي. (أما المضمون الديموقراطي فحدث عنه ولا حرج، اذ انه أمر غير وارد).

يقول الدكتور سعدون حمادي ان من أسباب التراجع عن القومية العربية:[٤٠]

□ أولا: الوضـع النفسي الذي نتج عن الاخفاق في تحقيق خطوة جدية في طريق الوحدة العربية. فالوحدة بين مصر وسورية قد فشلت ومشاريع التـوحيد الأخرى لم يتحقق منها شيء. وفوق ذلك العلاقات بين الدول العربية نفسها قد ساءت، وفي بعض الأحيان وصلت الى حالات تقارب اعلان الحرب.

□ ثانياً: لم يستطع الجهد العربي حتى الآن ان يحقق تقدماً ملموساً في مجال القضية الفلسطينية ومقاومة العدو الصهيوني، مما خلق وضعاً مادياً ومعنوياً غير مؤات لقيام الوحدة أو تحقيق خطوة مهمة على طريقها. وقد نشأ نتيجة لذلك وضع نفسي غير متفائل يتصف بالفشل في مجال التحقيق الفعلي لهدف الوحدة العربية.

□ ثالثا: التحول الذي طرأ على النشاط العام نحو الأهداف الاقتصادية والاجتماعية في البلاد العربية، نتيجة لزيادة العائدات النفطية بدرجة كبـيرة، ممـا نتـج عنه تحول الاهتمام من الجانب القومي الى الجانب

الاقتصادي التنموي كوسيلة تعويض عن الفشل في تحقيق الوحدة العربية.

□ رابعاً: تأثر الوطن العربي عبر التاريخ بالتيارات الفكرية السياسية والاقتصادية الموجودة في العالم. ولا يوجد في عالم اليوم حديث بصوت عالٍ عن القومية كما كان الحال في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. فالعصر الحالي هو عصر التصرف القومي وليس عصر الحديث عن القومية، بعد أن اجتازت القومية في البلدان المتقدمة مرحلة البحث والنقاش وأصبحت حقيقة واقعة، الأمر الذي جعل هذه البلدان تتحول الى مشاكل جديدة هي القضايا الاجتماعية والاقتصادية واحلال السلام.

□ خامساً: غياب الجدل والنقاش في القومية والعروبة ـ للاعتبارات المذكورة اعلاه وغيرها ـ أوقع الفكر العربي والعمل السياسي في خطأ فادح هو التصور أن عصر القومية قد انتهى وحل محله عصر العالمية ـ الماركسية أو الدينية ـ الطائفية أو القطرية ـ العشائرية. فجرى التركيز على الحوافز الاقتصادية السهلة التي ولدتها السيولة النقدية لثروة النفط، وعلى المكاسب الاجتماعية القطرية وعلى اللعب بالغرائز الدينية واستفزاز العواطف الاقليمية الانعزالية.

أمام هذه الأسباب الخمسة لتراجع الحديث عن القومية العربية أود التوقف عند حاجزين: واحد هامشي في نظري والآخر أساسي.

* الهامشي: هو عملية الالهاء المادي التي تمت في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، عندما وضعت مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية في كل بلد عربي تقريباً بديلا عن مشاريع الوحدة والترابط القومي، مدعومة بزيادة مداخيل النفط وتوفر السيولة لدى الحكومات، حيث شغلت الناس عن الاهتمام بالقضايا القومية سعياً وطموحاً. فاستبدلت الديموقراطية بالعدالة الاجتماعية، والحديث عن الوحدة بالحديث عن التنمية الاقتصادية، وتطبيق الاشتراكية بمختلف تفسيراتها بالتنفيذ الفاشل لمشاريع التأميم والاصلاح الزراعي.

وتم افراغ الفكر القومي العربي وحركات الوحدة العربية من

مضامينها الاقتصادية والاجتماعية إما عن طريق الترغيب والاغراق المالي أو عن طريق الالحاح بالسعي لكسب الثروة. وبدل ان تكون برامج التنمية الاقتصادية واجراءات العدالة الاجتماعية والقضاء على الاستغلال مكملة لطموحات القومية العربية ومضامين حقيقية لها ترسم على أساس قومي، أصبحت تعويضاً عنها وبديلاً لها. ووقع التناقض المصلحي بين المضمون القومي وبين المضمون الاقتصادي.

* الأساسي: هو علاقة القومية العربية بالاسلام، وبروز الفكر الطائفي الاسلامي، الذي حاول ان يقيم تناقضاً بين القومية العربية وبين الاسلام. فعلاقة العروبة بالاسلام تتجلى في الفهم التاريخي الصحيح لكيفية نشوء الاسلام. ولحقيقة مبادئه ومكانته في المجتمع العربي. ففكرة «الوطنية» أو «القومية» أو «العروبة» لم تكن بعيدة أبداً عن فكر الاسلام السياسي. وليس أدل على ذلك مما قاله الشيخ حسن البنا المرشد المؤسس لجماعة الاخوان المسلمين في «العروبة» على الرغم من نقض أتباعه اليوم لأفكاره ورفضهم مبدأ التقاء العروبة والاسلام.

يؤكد حسن البنا مؤسس جماعة «الاخوان المسلمين» أن الاسلام هو روح العروبة والمعبر عن اخلاقية العرب وميولهم المثالية:[٤١]

«كيف يقال ان الايمان بالوطنية المصرية لا يتفق مع ما يجب أن يدعو إليه رجل ينادي بالاسلام (...) اننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب، عاملون له، مجاهدون في سبيل خيره. وسنظل كذلك ما حيينا، معتقدين ان هذه هي الحلقة الأولى في سلسلة النهضة المنشودة، وأنها جزء من الوطن العربي العام. وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والاسلام والعروبة (...) لها في دعوتنا كذلك، مكانها البارز وحظها الوافر. فالعرب هم أمة الاسلام الأولى وشعبه المتخير. وبحق ما قاله النبي العربي: «إذا ذل العرب ذل الاسلام». ولن ينهض الاسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها (...) ان هذه الشعوب الممتدة من الخليج الى المحيط كلها عربية، تجمعها العقيدة ويوحد بينها اللسان وتؤلفها الوضيعة المتناسقة في رقعة من الأرض متصلة متشابهة، لا يحول بين اجزائها حائل ولا يفرق بين حدودها فارق...».

من الملاحظ في هذه الفقرة ان حسن البنا نفسه يعدد في تحديده لمكانة العروبة من دعوته خصائص القومية العربية وسماتها، مؤكداً ان لا اسلام حقيقي من دون عروبة.

ويضيف حسن البنا ملغياً أي تناقض بين الاسلام والقومية، إذ يقول:

«العرب هم عصبة الاسلام وحراسه (...) من هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لاعادة مجد الاسلام وإقامة دولته واعتزاز سلطانه. ومن هنا وجب على كل مسلم ان يعمل لاحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها...»

يجب أن لا يدفعنا هذا الكلام الى الخلط بين القومية العربية والوحدة الاسلامية ولو اضطررنا الى التذكير بمجموعة من الوقائع التاريخية التي تبدو ضرورية في سياق حديثنا ـ حتى ولو كانت معروفة. لذلك يجب التمييز باستمرار بين الدفاع عن العروبة من حيث هي قومية، وبين الدفاع عن الاسلام من حيث هو دين.

نجد القومية العربية تبدأ كحركة سرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فتؤلف من أجلها الخلايا السرية في الاستانة عاصمة الدولة العثمانية، وتتخذ من الجمعيات الادبية في دمشق وبيروت مقراً علنياً لها. ثم نجدها كحركة سياسية واضحة المعالم لها أهداف قومية في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام ١٩١٣. وكانت الحركة القومية العربية تحمل في حينه ظاهرتين:

□ الأولى: انها لم تتخذ من الاسلام خاصة ومن الدين عامة أساساً لها، إنما استمدت من العروبة الخالصة مبدأها الأساسي اذ كان المسيحيون والمسلمون يشكلون نواتها. وقد اشترك المسيحيون والمسلمون فيها على أساس انهم عرب يقاومون محاولات التتريك نتيجة اعتزازهم بعروبتهم، قبل أن تصبح حركة استقلالية يريد بها العرب التخلص من نفوذ الاتراك وسيطرتهم. ومن الثابت والصحيح تاريخياً ان أكثرية المنضوين تحت لواء الحركة كانوا من المسيحيين، ولذلك يكون الفضل لهؤلاء النصارى في غرس بذرة القومية الوطنية وبعث حركة مستوحاة من تاريخ العرب وما

اكثرهم تستهدف مثلا قومية بدلا من المثل الدينية والطائفية.

ولعل ما يجدر التأكيد عليه إنبعاث كلمتي «عرب» و«عروبة» كمفهومين نهضويين قوميين لم يكن موجها في المرحلة الأولى ضد الاتراك بوصفهم يحكمون العرب باسم الخلافة الإسلامية، بل بوصفهم جماعة حاكمة إنبعث في صفوفها وعي قومي (جماعة تركيا الفتاة) يقوم على فصل العنصر التركي وتفضيله على العناصر الأخرى داخل الامبراطورية العثمانية والطموح الى تسويده عليها وجعله يحتويها احتواء.

غير ان الحكم العثماني كما تجسّد في سياسة التتريك، لم يكن الوحيد الذي كان يتهدد العرب آنذاك، بل لقد كان هناك التوسع الاستعماري الاوروبي الذي كان يستهدف الامبراطورية العثمانية ككل، هذه الامبراطورية التي كانت تستظل بظل الخلافة الاسلامية. وبما ان اوروبا الاستعمارية هذه كانت في الوقت نفسه اوروبا المسيحية، فلقد كان طبيعياً أن يكون رد الفعل ضدها من مسلمي المنطقة العربية، وهم الأغلبية العظمى، مفعماً هذه المرة بمضمون اسلامي. والنتيجة أن أخذ شعار «الاسلام» وشعار «العروبة» يتزاحمان ويتنافسان، لا كشعارين متعارضين يدخلان مع بعضهما في علاقة تضاد وصراع، بل كتعبيرين عن نوعين من رد الفعل: «العروبة» ضد التتريك و«الاسلام ضد الاطماع الاستعمارية لأوروبا الصليبية».(٤٢)

□ الثانية: ان مضمون القومية العربية في ذلك الوقت لم يشمل إلا القسم الآسيوي من العالم العربي ـ الجزيرة العربية والهلال الخصيب. بينما ظل القسم الافريقي ـ مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب خارج هذا المضمون. والسبب ان القسم الافريقي من العالم العربي كان يخضع لنفوذ الاستعمار الغربي المعادي للمسلمين. لذلك قامت الحركات الوطنية في وادي النيل وشمال أفريقيا على أساس ديني.

أما القسم الآسيوي من العالم العربي ـ العراق وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن فكان خاضعاً للنفوذ التركي. ولما كان الاتراك مسلمين، فقد كان من الطبيعي ان لا يكون النضال على أساس اسلامي. من هناك كانت العروبة هي الأساس وكان المسيحيون شركاء المسلمين في

النضال القومي. لذلك ظل مفهوم القومية العربية في أذهان الكثيرين من أبناء الشمال الافريقي مبهماً وغامضاً الى اليوم. حتى الفكرة العربية نفسها لم تستقر في مصر ولم تستغل إلا منذ ١٩٥٦ عندما أعلن جمال عبد الناصر «مصر دولة عربية مستقلة (...) والشعب المصري جزء من الأمة العربية».

فالتقابل بين «العروبة» و«الاسلام» الذي أخذ يتبلور خلال سنوات المد الاستعماري لم يكن مواجهة بين مفهومين مختلفين، فلم يكن الاختيار المطروح ان نختار العروبة أو أن نختار الاسلام، بل كان: أي السلاحين يجب ان نحرك في البداية: سلاح العروبة أم سلاح الاسلام؟ فالثنائية اذن لم تكن ثنائية على صعيد الهوية بل كانت على مستوى الاداة التي ينبغي تحريكها للدفاع عن الهوية وحمايتها.

ولم تكن هذه الثنائية، على مستوى الاداة، قائمة محتدة في الوطن العربي ككل، بل كانت كذلك في سورية ولبنان والجزيرة بصورة خاصة. أما في أقطار المغرب العربي فلم تكن هناك أية ثنائية من هذا النوع لان الذي كان يتهدد أهله كان واحداً وليس متعدداً، كان: الاستعمار الفرنسي وحده، أي الأوروبي، ليس غير. وبما أن السياسة الاستعمارية الفرنسية قد استهدفت، من جملة ما استهدفته، تنصير الأهالي، أو قسما منهم على الأقل، وهم البربر الذين كانت تريد فصلهم عن العرب فلقد جاء رد الفعل الوطني مزدوجاً: اسلامياً، ضد التنصير والتبشير، وعربياً ضد السياسة البربرية. وإذا أضفنا الى هذا خلو المغرب العربي من التعددية على صعيد الدين، فجميع السكان مسلمون سنيون مالكيون، أدركنا كيف أصبحت «العروبة» و «الاسلام» في المغرب العربي يحيلان الى شيء واحد هو الهوية الوطنية.[٤٣]

قد يبدو في هذا الكلام الكثير من البديهيات بالنسبة للبعض. ولكنه كلام أساسي بالنسبة للبعض الآخر من غلاة المتعصبين من مسلمين ومسيحيين الذين يصرون على ربط العروبة بالاسلام، بحيث ينتفي وجود المسيحي العربي إذا لم يكن مسلماً بقدر ما ينتفي وجود القومي العربي حتى ولو كان مسلماً.

وما دمنا في البديهيات، فلا مانع من تكرار المواقف المعروفة منذ بداية هذا القرن، التي أهمها أن الدين ليس شرطاً قومياً وأن العرب المسيحيين وجدوا قبل ا لاسلام وان لا تناقض هناك إطلاقاً بين العروبة والمسيحية. العروبة صفة قومية وجدت قبل الاسلام، أينما وجد العرب وحيثما انطلقوا بالعروبة. لقد وجد العرب قبل أن يبعث الله فيهم رسالة محمد بن عبد الله وقبل أن يولد المسيح عيسى بن مريم. وقريش كانت من العرب قبل أن يولد فيها النبي الكريم. والقرآن انزل على أمة عربية ذات لسان عربي، والاسلام دعوة حملها الى الناس نبي عربي سبق انتماؤه القومي إعلانه لدعوته السماوية.

إن وقف الجدل حول التناقض بين الاسلام والعروبة وبين المسيحية والعروبة هو حديث التاريخ العربي منذ ألف سنة أو أكثر، عندها يثبت نهائياً أن الاسلام دين وليس هوية قومية. فكما عاشت القبائل في الجزيرة العربية في عصر الجاهلية كقبائل عربية كان فيها المسيحيون واليهود، كذلك عاشت كقبائل عربية عندما جاءها الاسلام، وماتت كقبائل عربية من دون ان يصلها الاسلام أو عندما حاربت الاسلام. ولو كان الدين انتماء قوميا لكان جميع المسلمين عرباً، ولكان ضياء الحق في باكستان مؤسسا لحركة القوميين العرب مثلا ومحمد أرشاد في بنغلادش عضوا في حزب البعث وسوهارتو في اندونيسيا عميداً في الحزب السوري القومي الاجتماعي، ناهيك بالمسلمين الجدد من الزنوج الاميركيين والبيض الاوروبيين والصفر الصينيين.

ان العروبة صفة قومية وجدت قبل الاسلام، وتستمر بعد الاسلام. فيبقى العربي عربياً سواء كان مسلماً أم مسيحياً.

لقد عرّب الفتح العربي بعد ظهور الاسلام سكان البلاد المفتوحة وجعل أكثريتهم تعتنق الاسلام. غير ان الاسلام لم يحتم على سكان البلاد المفتوحة اعتناق الدين الجديد. ومن هنا استعربت جماعات دون ان تعتنق الاسلام وفي المقابل دخلت جماعات اخرى في الدين الاسلامي دون ان تستعرب. مما أدى الى الواقع التاريخي التالي: ان أكثرية العرب اليوم مسلمون، ولكن أكثرية المسلمين ليسوا عرباً.

ان عودة النقاش الى الفكر القومي، وخاصة في موضوع الصفة القومية للاسلام وللمسيحية أمر حيوي للوقوف في وجه الدولة الطائفية. فالحرب اللبنانية، قد أفرزت بشكل قاطع الدعوة الطائفية القائمة على تخويف المسيحيين من الذوبان في المحيط العربي المسلم الذي سوف يلغي هويتهم الدينية ويمارس ضدهم سياسة التمييز المذهبي. وهذه هي حجة «الجبهة اللبنانية» في دعوتها للمسيحيين للوقوف في وجه العروبة، ووسيلتها لتعميق عقدة الخوف عند كل المسيحيين في الشرق.

ان موقف بعض المسيحيين في لبنان اليوم من مشاريع التقسيم والكانتونات والدولة المسيحية والحلول الطائفية، نابع رأساً من الخلط بين واقع الاسلام السياسي وانغلاق الاسلام الطائفي المتعصب. فتلتقي مصلحة الاسلام المتطرف مع مصلحة المسيحية المتعصبة. لذلك يشعر المسيحيون في لبنان، والمسيحيون العرب بشكل عام، بأنهم مدفوعون الى اختيار نوع من «المسيحية المقاتلة».

وخيار المسيحيين العرب اليوم، ليس خيارا بين «المسيحية المقاتلة» و «المسيحية المستسلمة» كما يحاول ان يدفعهم إليها غلاة المتعصبين من الطرفين. أنه خيار لدورهم التاريخي الذي مارسوه عبر التاريخ العربي والاسلامي كله والذي هم مدعوون اليوم أكثر من أي وقت مضى الى إعادة تأكيده. ولا مجال لهذا الدور إلا من خلال العمل القومي العربي الذي كان المسيحيون وغيرهم من المفكرين العرب المسلمين رواده وأساتذته، ومن خلال القومية العربية التي تؤمن بفصل الدين عن الدولة وبالعلمانية والمساواة في الحقوق والواجبات السياسية. هنا يكمن التحدي الحقيقي للمسيحيين وللمسلمين معاً.

ان المسيحيين متهمون بأنهم «اخترعوا» فكرة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر ـ بداية القرن العشرين، لمحاربة الخلافة الاسلامية وإيجاد دور لهم في الحياة السياسية أكبر من حجمهم الحقيقي وأكثر مما كانت تؤهله لهم أوضاعهم في ظل الدولة العثمانية. والرد الوحيد على هذه التهمة الباطلة بعد حوالي مئة سنة من ادعائها، لا يمكن ان يأتي إلا من المسلمين. ان محمد وعلي وحسن يجب أن يحملوا

عبء مهمة عودة الروح الى القومية العربية كما طرحها جورج وميشال وانطون. فهم وحدهم قادرون على اسقاط الفكر الطائفي الانعزالي والغاء الخوف الديني عند المسيحيين والمسلمين على السواء.

ان العروبة ـ فكراً وقومية ـ لا يمكن ان تكون متناقضة مع الاسلام ولا مع المسيحية. ولكنها تتناقض حتماً مع العالمية الماركسية ومع القطرية الاقليمية ومع الطائفية الانعزالية. ولا بد ان يكون حافزها النهضة والتقدم. وإذا كان العرب قد فشلوا حتى الآن في الخطوات الوحدوية التي قاموا بها وفي الحركات التحررية التي دعوا إليها، فعليهم أن يكونوا اليوم أكثر اصراراً عليها وتمسكاً بها ـ لا التراجع عنها.

هوامش

(٤٠) الدكتور سعدون حمادي: وزير الخارجية العراقية السابق ورئيس المجلس الوطني العراقي الحالي. «تجديد الحديث عن القومية العربية» ـ بحث قدم في ندوة نظمها «مركز دراسات الوحدة العربية» في بغداد ـ ايلول، ١٩٨٣ ـ عن «اللغة العربية والفكر القومي» ـ «التضامن» ـ ١٩٨٥/١٢/٣١.

(٤١) حسن البنا ـ «دعوتنا: مجموعة رسائل الامام الشهيد» ـ طبعة دار الشهاب ـ القاهرة.

(٤٢) محمد عابد الجابري ـ «العرب والعروبة في المرجعية النهوضية» ـ «اليوم السابع» ـ ١٩٨٥/٩/٢.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) رياض نجيب الريس ـ «منطق التاريخ أم واقع الجغرافيا؟ غسان تويني: البحث عن جمهورية جديدة» ـ المستقبل» ـ ١٩٨٥/٣/١٩.

٧

ارثوذكسية القومية العربية

«ان الكنيسة التي تتكلم العربية هي الوحيدة التي تعي متاعب بلادنا بصبر وشجاعة»

ـ أغناطيوس الرابع هزيم ـ
١٩٨٣/٦/١٥

أريد ان تكون هذه المعالجة مدخلا الى الحديث عن دور المسيحيين العرب المميز والأصيل والأساسي في تكوين التاريخ العربي واطلاق الفكر القومي العربي.

وقد يلومني البعض ان طرحي لهذا النوع من المواضيع قد تجاوزه الزمن ـ وتجاورته الأحداث اللبنانية بالذات ـ بعد ان غمر السيل الطائفي والتعصب الديني كل القيم القومية والمواقف الوطنية، وشوه التاريخ واستبدل العنف الكلمة والرأي وحل الارهاب بنوعيه الفكري والعسكري محل النقاش الموضوعي والاختلاف في الاجتهاد. ويضيف هؤلاء البعض ـ في استسلام واضح ـ ان المد الطائفي لا بد ان يأخذ مجراه وان المتغيرات اللبنانية والعربية التي افرزتها الأحداث في السنوات العشر الأخيرة قد جعلت الحديث في القومية والعروبة نوعاً من الترف الفكري وضرباً من التنظير.

ولا رد عندي على هذا الكلام إلا أن ما يراه هذا البعض من متغيرات مرحلية لا يغير اطلاقاً من الثوابت الأساسية للقضية القومية العربية التي تتعرض في هذه الظروف الحالكة الى هجمة الردة الدينية والحرب الطائفية.

لذلك لا يمكنني أن أنسى ثلاثة أحداث تعلمتها في شبابي:

الحدثان الأولان تعلمتهما في المدرسة. والحدث الثالث تعلمته في بيتي.

الحدثان اللذان تعلمتهما في المدرسة هما أنه كان للنصرانية الارثوذكسية يومان أغرّان في تاريخ العرب القومي: يوم في الشام ويوم في العراق.

أما يومها في الشام فقد كان حينما زحف الاسلام من الحجاز الى هذه الديار ليحررها من استعمار الامبراطورية البيزنطية. فقد رفض

النصارى العرب ان يحاربوا في صفوف الجيش الروماني وانضم كثيرون منهم الى صفوف العرب المسلمين وقاتلوا جنود قيصر.

وأما يومها في العراق فقد كان حينما انضم المثنى بن حارثة على رأس قبائل بني شيبان الى جيش سعد بن ابي وقاص في فتح بلاد العجم في قتال كسرى. وكان شباب بني شيبان النصارى الارثوذكس على أبواب القادسية، يهتفون للفتح العربي القومي ويحاربون لتحرير العرب من استعمار الفرس.

هذان يومان أبيضان يحفظهما تاريخ العرب والاسلام للنصرانية الارثوذكسية في اشرق صفحة من صفحاته. فقد نسيت هذه الارثوذكسية الخلاف بينها وبين الاسلام في الدين أمام دفع الاجنبي عن الوطن. ولكنها ذكرت القومية فانضمت الى لوائها وتحمست للعروبة في سبيلها.

أما ما تعلمته في بيتي، فكان في كانون الثاني ١٩٣٧، عندما جاء أحد أعضاء لجنة المراقبة الدولية الى انطاكية ليحققوا في دعوى الاتراك في سلخ لواء الاسكندرون عن سورية وضمه الى تركيا. فاغلق الاتراك المساجد يوم الجمعة في وجوه المسلمين من العرب السوريين ليمنعوهم من الصلاة والتظاهر أمام اللجنة الدولية تأكيداً لعروبة الاسكندرون. كذلك ليؤكد الاتراك للعالم ان تركيا الجمهورية اللادينية الجديدة قد تخلت عن دينها واسلامها، وأنها أصبحت دولة اوروبية علمانية!

فما كان من النصارى الارثوذكس إلا أن فتحوا خلال ساعة واحدة من المنع التركي كنائسهم البيزنطية الرومانية وأحالوها مساجد للمسلمين يؤدون فيها صلاة الجمعة في أعظم مهرجان وطني قومي. وصلّى المسلمون لأول مرة في حياتهم صلاة الجمعة في الكنائس الى جانب النصارى. ووقف خطيب المسلمين في هيكل المسيح يتلو القرآن وصعد مؤذنهم الى قبة الناقوس ليرفع الآذان. وكان الموقف المسيحي التلقائي والعفوي هذا سبباً في حدوث أروع حادثة وطنية في تاريخ النضال السوري من أجل عروبة الاسكندرون، قوّت في نفس السوريين رابطة القومية العربية في ظل الدين الاسلامي والدين المسيحي، بعد ان كانوا يقولون أن الأديان تهدم القوميات. وإذا بهذا الموقف الديني يحمي

القومية ويشد أزرها ويدافع عنها أمام الخطر الأجنبي الداهم. وإذا بها أيضاً أعظم مظاهرة سياسية أمام لجنة دولية جاءت لتشهد مقدار دعوى الأتراك في هذا اللواء العربي السليب. فكانت أبلغ دفاع عن عروبة الاسكندرون وإتحاد سكانه.

وأصبح للنصرانية الارثوذكسية في التاريخ العربي يوم ثالث، بعد يوم الشام ويوم العراق، هو يوم انطاكية.

أسوق هذه المواقف من التاريخ العربي القديم والحديث لأصل الى أن الروم الارثوذكس ليسوا مشكلة في لبنان كما يحاول أن يصورها المتعصبون من المسيحيين اللبنانيين، متخذين من موقفهم غير المؤيد للمارونية السياسية دليلا على خروجهم عن الصف المسيحي، وكأنهم سود أميركا أو آسيويو بريطانيا أو أتراك المانيا أو ملونو جنوب افريقيا.

انهم هنا ـ في المشرق، في الهلال الخصيب، في العالم العربي ـ منذ العصر الرسولي ومنذ نشأة المسيحية، وليسوا وليدي هجرة أو انشقاق. هم أهل البلاد منذ القدم. هم ابناء الذين تنصروا على يد بطرس الرسول في الساحل أو عن بولس الرسول في الداخل وسواهما، في ما كان يعرف بولاية المشرق في العهد الروماني. ولم يأتوا من جزر اليونان كما قد يوحي الاسم ولا صلة لهم في الادارة الكنسية بأي شيء رومي. وظلوا في صلة غير منقطعة مع كنيسة المشرق المعروفة بالكنيسة الانطاكية والمسماة كذلك لكون بطريركها بقي مقيماً في انطاكية حتى القرن الرابع عشر.

الارثوذكس هم سكان سورية الطبيعية، استعملوا الارامية واليونانية لغتي تلك العصور، حتى تعرب لسانهم جميعاً بصورة نهائية في القرن الثالث عشر، ولم يبق على الارامية ـ وهي لغة السيد المسيح ـ المستعملة مع العربية الا فئة قليلة في بلاد القلمون في الشام، وفي قرية معلولا في سورية. وقد اتخذوا الطقس البيزنطي من بعد ان استعاد الروم جزءاً من بلاد الشام في القرن العاشر. وحافظوا على هذا الطقس بعد أن نفى الصليبيون زعماء كنيستهم، فأقاموا في القسطنطينية حيث اتقنوه. وكان التلاصق المذهبي بين الامبراطورية الرومانية البيزنطية وهذه الفئة من مسيحيي المشرق، قد قوى عندهم الشعور بالامتداد الجغرافي. وعندما

جاء العثمانيون وورثوا بيزنطية سياسياً وجغرافيا، بقي الارثوذكس منتشرين في أنحاء الامبراطورية العثمانية الواسعة وخلف تخومها.

وعلى الرغم من التقلبات السياسية التي عصفت في المنطقة العربية، وعلى امتداد القرون الخمسة منذ بداية الحكم العثماني الى اليوم، ظل الارثوذكس خارج أي نفوذ اجنبي ـ بما في ذلك النفوذ الروسي الذي لم يدم طويلا، والذي بدأ في أواخر القرن التاسع عشر وزال بزوال القيصرية وانتصار البلشفية في بداية القرن العشرين. ومنذ ذلك الحين لم تتبناهم دولة أخرى، ولا هم التمسوا حماية أجنبية. وحملوا مع بقية المسيحيين والمسلمين لواء القضية القومية العربية طوال المئة سنة الاخيرة على الأقل. فحاربتهم فرنسا الدولة المنتدبة على سورية ولبنان وحاولت أن تقضي عليهم بواسطة الكثلكة، كما حاولت بريطانيا ان تمتصهم بواسطة البروتستانتية. وصمد الارثوذكس، رعاة وكنيسة، في وجه المحاولتين.

وعلينا أن لا ننسى ان الحملة الصليبية الرابعة قامت أصلا ضد الارثوذكسية الشرقية في محاولة أخيرة لجر الكنائس الشرقية الى السيطرة الاوروبية الغربية، أكثر مما قامت ضد المسلمين. وهي قتلت من المسيحيين بقدر ما قتلت من المسلمين ودمرت من كنائس وأديرة المسيحيين أكثر مما دمرت من مساجد وممتلكات المسلمين.

ولأن ليس في المسيحية الارثوذكسية، لا تاريخاً في المشرق ولا عقيدة في الكنيسة، ما يسمح بأي لون من ألوان الخلط بين أمور الدين والدنيا، ترك للارثوذكسيين حرية الخيار السياسي. فقد سمح استقلال الأرثوذكس عن اللاهوت الغربي لكل ابناء الكنيسة بأن يختاروا المواقف الحزبية او السياسية التي يريدونها باعتبارهم مواطنين لاطائفيين. لذلك كان وظل عند الأرثوذكس الشعور الدائم أنهم يكونون جماعة تحس نفسها كنيسة ولا تحس أنها طائفة. هذا الاحساس الذي ما زال يشكل مجابهة سياسية مستمرة بين الارثوذكس وبين المسيحيين الآخرين، التي ما هي الا مجابهة بين حالتين: الانتماء الى مواطنية الدولة أولا، فتعرف نفسك بتعريف الوطن ـ وبين الانتماء الى الهوية الدينية، فتعرف نفسك بتعريف طائفتك. وفي الحالة الثانية تسقط في جدلية الخوف والغبن، بينما

في الحالة الأولى تقف في مواجهة حقوقك المشروعة كمواطن، فتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

ولأن الارثوذكس هكذا في التراث والتاريخ العربي، من قبل الاسلام ومن بعده، استطاع البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم، بطريرك انطاكية وسائر المشرق للروم الارثوذكس، ان يقف في كاتدرائية نوتردام في باريس في ١٥ حزيران ١٩٨٣، ليقول لأكبر دولة كاثوليكية في العالم، ذات الارتباط التاريخي المصلحي المتواصل مع سورية ولبنان، وفي أسوأ أيام التعصب المسيحي اللبناني ضد العروبة والاسلام، وفي أمرّ أيام التعصب الاسلامي وأسوئه ضد المسيحية والعروبة ـ فكرة وقومية ـ أنه يخاطب الشعب الكاثوليكي الفرنسي بصفة كونه: «ارثوذكسياً عربياً وعربياً مسيحياً».

هكذا أكد رئيس أكبر كنيسة في المشرق العربي، بهذه الوقفة البسيطة وبعنفوان قومي وبوطنية مخلصة، الأمر البديهي الذي جرفه السيل الطائفي والتعصب الديني والتشرذم المذهبي والعنف الوحشي. ان عروبة المسيحيين هي فوق الجدل وفوق المساومة وفوق التشكيك، كما كانت دائماً عبر مسار التاريخ.

ولم يكتف اغناطيوس الرابع بذلك بل قال: «انني اتكلم باسم كنيسة مركزها اليوم دمشق، المدينة التي هزم فيها المسيح، الرسول بولس، فأمن وتعمد فيها، لغتنا الطقسية هناك هي اللغة العربية، اللغة الوحيدة التي يصلي بها المسلمون في مختلف انحاء العالم. فالكنيسة التي تتكلم هذه اللغة هي الوحيدة التي تعي متاعب بلادنا بصبر وشجاعة، والقادرة على ان تصل الى قلوب كل المشرقيين».(٤٥)

ولأن الارثوذكس لا يملكون عقدة نقص من الأكثرية الاسلامية التي يعيشون بينها، ولأنهم في سورية ولبنان وفلسطين ليسوا وليدي هجرة ولا نتيجة تبشير ولا طلاب حماية اجنبية ولا دعاة وطن مسيحي، فلهم في الوطن العربي على امتداده ـ كنيسة وافراداً، فكراً ونضالاً، عملاً سياسياً وقتالاً عسكرياً ـ أكثر ما لهذا الوطن العربي عليهم، لا يعانون من عقدة الخوف بل هم أصحاب دور توفيقي وطني، يتجنى عليه دائما

تحريض غلاة المتعصبين والمتطرفين.

صحيح ان هناك مليون ارثوذكسي في سورية، « وهذا من الأمور التي تفسر أن ارثوذكسيي لبنان يلتقون بمحبة كبيرة مع اخوانهم الارثوذكسيين في سورية ويلوذون ببطريركهم في دمشق»، الا أن هذا ـ على حد تعبير المطران جورج خضر، مطران جبل لبنان ـ «لا يقلل ذرة من ولائهم اللبناني وعصبيتهم اللبنانية وتحسسهم الوحدة اللبنانية غير المشروطة».

ان الارثوذكسي اللبناني لم يحس في لبنان بصدام بين عروبته ـ او مشرقيته كما يحب ان يسميها المطران خضر ـ ولبنانيته. وعلى الرغم من محاولة العديد من العلمانيين والسياسيين الارثوذكس من «مورنة» الطائفة سياسياً وخاصة خلال سنوات الحرب الأهلية الاخيرة، فقد ظلت الأغلبية الساحقة من الارثوذكس اللبنانيين فخورة بانتمائها العربي وبلبنانيتها من دون الشعور بأي تناقض بينهما. فقد كان دائماً للعروبة عند الارثوذكس محتوى لبناني صادق وأصيل.

كذلك كان الارثوذكسي السوري والعراقي والفلسطيني والاردني والمصري، لا يحس بأي اصطدام بين مسيحيته وقطريته، ولا بين ارثوذكسيته وقوميته، فكان مالىء الدنيا العربية وشاغل الناس في كل القضايا السياسية الوطنية والمواقف القومية، فأنشأ الأحزاب وأقام الجمعيات وقاد الحركات وحمل الرايات، التي كانت كلها رايات تدعو الى الوحدة والى القومية العربية والى «الرأي المستقيم» في كل دعوى وعند كل قضية وفي مواجهة أي خطر خارجي أو داخلي، فحمل بريق التجديد في الفكر الثقافي والسياسي خلال تاريخه العريق كله.

هوامش

(٤٥) البطريرك اغناطيوس الرابع هزيم ـ «باريس: البطريرك هزيم في نوتردام يقترح عودة الاتحاد بين الشرق والغرب» ـ «النهار» ـ ٦/٦/١٩٨٣.

٨

لبنان
ظالماً ومظلوماً

«أرضكم خراب ومدنكم محرقة بالنار
وحقلكم يأكله الغرباء»

ـ أشيعيا ـ

لبنان لم يعد شأناً لبنانياً خاصاً بأهله وطوائفه وعشائره وأحزابه وعائلاته. لقد تحول لبنان خلال السنوات الطوال من الأحداث الدامية والمريرة التي مرت عليه ـ من شأن لبناني خاص الى شأن دولي له انعكاساته العالمية في صراع القوى الكبرى، يفرض بالتالي على كل عربي موقفاً ورأياً.

انطلاقاً من ذلك، أنني اعتقد صادقاً بأن الذي ليس فريقاً وطرفاً في الشأن اللبناني ليس فريقاً وطرفاً في الشأن القومي العربي. وكلنا ـ شئنا أم أبينا ـ اطراف في ذلك. فلعبة الأمم التي تقام على الأرض اللبنانية اليوم، وتدار من الشرفات العالمية المحيطة بالملعب اللبناني، وتحضرها جماهير غفيرة من المتفرجين العرب، هي لعبة نحن كلنا احجار على بقع الشطرنج العربية فيها، ننتظر من يقول لنا: «كش ملك» أو «كش وزير» أو ربما «كش شعب».

هل قلت في الشأن القومي العربي؟

وهل هناك موقف قومي عربي مما مر ويمر وسيمر على لبنان في مستقبل الأيام الآتية؟

بكل بساطة نعم. لأنه اذا أرادت الأنظمة والدول العربية أن تعترف وتتعامل من منطلق عربي مع لبنان أو لم ترد، فان لهذا التعامل شروطاً ستظل تفرض نفسها كموقف قومي، لأن غياب هذه الشروط هو الأصل في كل ما عرفته المنطقة العربية من متاعب في السنوات العشر الأخيرة على الأقل. ان سقوط الموقف القومي، بمعناه التقليدي وشروطه، لا يعني اطلاقاً سقوط المسؤولية القومية المترتبة على الدول العربية من جراء مواقفها من لبنان.

لن انضم الى موكب الناعين للقومية العربية، عقيدة وموقفاً ونضالا، لفشلها في التصدي للاحداث اللبنانية على امتداد سنوات الحرب.

فانا ـ ربما ـ ما زلت من القلائل الذين يؤمنون بأن المبدأ القومي العربي، على كل ما شابه من ممارسات وعابه من انحلال وأصابه من خلل، نتيجة ضعف الإيمان به والتخلي عن اسسه وأخلاقياته، ما زال هو المبدأ الأكثر استيعاباً لصهر المشاكل العربية والخروج بحلول لها. لكن تجاهل الارتباط المصلحي لكل دولة عربية بفوائد وجود استراتيجية قومية واحدة، نتيجة الوهن الذي أصاب العزيمة العربية والقرار العربي، الى جانب التشرذم العربي وطغيان الاقليمية القطرية الضيقة وانتشار مد الشعوبية من دينية وسياسية، جعل القومية العربية، كعقيدة تتخطى كل الحواجز الطائفية والعشائرية والاقليمية، عاجزة عن الوقوف في وجه جحافل الاحقاد الدينية والمد السفلي والرجعية التاريخة. وذلك ليس لخطأ في أسس ومفاهيم القومية العربية، إنما نتيجة لفشل الاخلاص لروحها ونصوصها.

والقومية القوية كأي فعل إيمان تحتاج الى تحقيق شيء من المعجزات وكثير من النجاحات. وهذا يحتاج الى رسل وأتباع ومريدين. وقد انكسر الرسل وهزم الأتباع وتفرق المريدون وضاعت القضية. وبقي الإيمان. أو هكذا نريد أن نعتقد.

أقول قولي هذا لا لاستغفر القومية العربية لي ولكم من شذاذ الآفاق الذين ابتليت بهم منذ ان نمت جذورها في مطلع هذا القرن، إنما لانني أريد أن اقول ان لا أحد يريد ان يدافع عن موقف العرب، أنظمة ودولا وشعوباً، من لبنان ومأساته الطويلة. ولا أحد يريد ان يبرر التصرفات العربية، من سياسية وعسكرية وسواهما على الأرض اللبنانية، ولا أحد يريد ان يدفع اللوم عن العرب، أمة وقومية ومصيراً مشتركاً، في ما حصل ويحصل على ارض لبنان.

لا أحد في العالم العربي لم يرم لبنان بحجر. لكن لبنان لم يكن بريئاً. كذلك الذين رموه بالحجارة لم يكونوا من غير خطيئة. وليس هناك من يريد أن يدافع عن لبنان ظالماً ومظلوماً. لكن للبنان المظلوم عربياً موقفاً.

فهو يقول بلسان عدد من زعمائه وكتابه ان لا أحد من العرب أعلن الحرب لتحريره ولا ضيق الخناق اقتصادياً على أعدائه ولا قاطع سياسياً الدول المتألبة عليه ولا ضغط من أجل خلاصه من محنته ولا اعانه مالياً.

قد يكون الجواب البديهي على هذا التساؤل ان الدول العربية لا تملك سياسة معينة وليس لها رأي محدد في ما يجري على الساحة اللبنانية، وبالتالي فهي لا تريد أن تزج بنفسها في أتون الصراع اللبناني، ولا ان تعرض حياة وزرائها ومسؤوليها للخطر بارسالهم الى بيروت للاستقصاء عن أحوال لبنان.

الا أن هذا الجواب يبدو سخيفاً، عندما ندرك ان كل دولة من هذه الدول تملك موقفا من الغزو السوفياتي لافغانستان ومن حرب التحرير الاريترية ومن مشاكل القرن الافريقي ومن أسعار النفط ومن مستقبل الطاقة ومن الحرب في تشاد ومن الحرب في الفوكلاند ومن جبهة البوليساريو والصحراء المغربية ومن الخلافات داخل منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها المتعددة، ومن استيراد الفيديو ومن الرقابة على الكتب ومن العمالة العربية على أرضها ومن تأشيرات الدخول، كما لها نظريات في الأمن الاعلامي والامن الغذائي والأمن البوليسي والغزو الثقافي وكافة التركيبات الحضارية والنظريات الاتنية في العالم.

الا حرب لبنان الطويلة البشعة وأحداثه السياسية المتراكمة. وكأن لبنان أرض مشاع في مريخ القطب الجنوبي أو الشمالي. لماذا؟ فقد يأتيك التفسير: حتى لا يعتبر ذلك تدخلا في شؤون لبنان الداخلية. نعم. وعندما تلح بالسؤال ان الموقف والرأي شيء والتدخل شيء آخر، يأتيك الجواب بأن الموضوع اللبناني معقد الجوانب وان فرقاءه كلهم «أصحابنا». وعندما تعود مجدداً لتقول لهم ان موقف زامبيا مثلا من السياسة الاميركية في افريقيا ليس تدخلا في شؤون اميركا الداخلية، يأتيك الجواب صامتاً هذه المرة. وعندما تستشهد بمواقف الدول الغربية واهتمامها بلبنان يجيبونك بان هذه دول كبرى لها مصالح وامتيازات تريد الحفاظ عليها وهي دول قادرة على زج نفسها في شؤون الآخرين. أما نحن فدول صغيرة تركيبنا فسيفسائي كلبنان، تعتمد على الغرب أو

على الشرق في سياستها.

وعندما يسود الصمت فجأة، يأتيك الرد المفحم: ان الموقف العربي ينتظر قمة مقبلة. فالقمة العربية السابقة والمقبلة كما نعرفها هي كالصندوق الذي سرقوه من محمد لكن مفتاحه ما زال في أحد الجيوب.

وحتى لا نقع في عاصفة الدفاع عن أهمية السباق القومي العربي للحفاظ على المصالح العربية في لبنان ضمن اطار امة واحدة، التي لم تعد في نظر الكثيرين من العرب واللبنانيين بالذات الا كلاماً على الورق، علينا ان نتخطى الاستسلام الكامل في غياب الموقف القومي الواحد، من دون ان يمس هذا الاستسلام بجوهره، لذلك لا بد من الاقرار بأن ظلماً عربياً ما قد وقع على لبنان، بداية من الأسوار العالية التي رفعها العرب دولا وأنظمة، بوجه اللبنانيين الخارجين، بين فترة واخرى، من أتون حروبهم الطاحنة ، ونهاية باغلاق الأبواب أمام تحركهم في حدود ما يقول العرب أنفسهم عنه بأنه وطن واحد يجعل من الصعب على اللبنانيين ان لا يكفروا بالعروبة واقعاً وشعاراً وتطبيقاً. فالصمت العربي والخوف العربي والتنصل العربي قد زاد من تصلب «المارونية السياسية» في كره العرب وفي خذلان «الاسلام السياسي اللبناني» من موقف قومي عربي يتخطى حواجز الطائفية السياسية.

هذا اذا كان لبنان مظلوماً. أما إذا كان لبنان ظالماً فان التخاذل العربي سيجد له انصاراً بين الذين يجدون في المواقف العربية تبريراً.

الظلم اللبناني يقع على العرب عندما يصل الاعتقاد بـ «المارونية السياسية» ان لبنان بالفعل شيء قدسي لم يرتكب ذنباً ولا إثماً طوال سنوات الحرب، وان اللبنانيين مجموعة من الملائكة الأبرياء غواهم شياطين العرب فادخلوهم في أتون حرب أهلية، لبنانية ـ عربية دولية لا هم بالعير فيها ولا بالنفير. وبالتالي «تبرئة» اللبنانيين بمختلف فئاتهم من أية مسؤولية مباشرة عن احداث حرب هذه السنوات، ووضع اللوم، كل اللوم، على الدول والانظمة العربية التي اختارت الصراع في ما بينها على الأرض اللبنانية، وكأن اللبنانيين مجرد رهينة في هذا الصراع وشعب مغلوب على امره وليس طرفاً أساسياً في كل ما حدث.

ويتضاعف هذا الظلم اللبناني أيضاً عندما تعتبر «المارونية السياسية» ان انتماء لبنان العربي لم يكن اختياراً حراً، انما تحكم من التاريخ فرضته ظروف الاستقلال السياسي وشروطه عن فرنسا ارضاء للمسلمين اللبنانيين غير المؤمنين بأزلية لبنان وهويته التي لا تحتاج الى «وصف ولا تعريف، إلا ان لبنان وطن نهائي تنتهي عند حدوده مطامحهم وأحلامهم».

وتتمادى «المارونية السياسية» في ظلمها للعرب عندما تمنن العرب، باستمرار بخدمات لبنان واللبنانيين للعروبة كفكرة ولغة وللعرب كعبقرية وموهبة، مع التهديد اللبناني الدائم بالانسحاب من العروبة وبالابتعاد عن العرب، وكأن العروبة ناد رياضي والعرب فريق كرة قدم. كذلك كأن من الممكن ان يعطي لبنان واللبنانيون للعرب والعروبة ما اعطوه لو كان لبنان هندياً أو صينياً مثلا، او لم يكن عطاؤه الا لأنه ينتمي إليهم ولأنه عربي مثلهم.

ان انتماء لبنان العربي والقومي ليس خياراً. انه واقع مصيري لا فكاك منه. مثلما هو انتماء الدانمرك والسويد والنروج الى اسكندنافيا (وهي التي تتكلم ثلاث لغات مختلفة) وهو ليس خياراً يسحب ساعة يشاء أحدهم. كذلك انتماء المكسيك الاميركي اللاتيني وخيار النمسا (المحايدة) الالماني. هذه حقائق التاريخ وليست ترفاً أو ظروفاً آنية. أي حرب لا تستطيع، مهما طالت، أن تغير من هذه الخيارات، والا لاصبح لبنان بعد خمسة قرون من الحكم العثماني تركيا مثلا، وأصبحت فرنسا بعد هزيمة حربين عالميتين المانية بحكم الاحتلال الالماني الطويل لها. وأصبحت الهند انكليزية بعد حكم بريطاني دام ٤٠٠ سنة، وفييتنام فرنسية أو اميركية بعد حرب استعمارية استمرت خمسين سنة. فاذا كان لبنان فينيقيا؟ في عالم انقرض في غياهب التاريخ أكثره مختلف عليه وبعضه اسطوري؟ ان مصر الفرعونية الاعرق تاريخاً والأوثق حضارة لم تستطع ان تتجاوز عصر البطالسة قبل أن تصبح عربية المحتوى منذ وصول عمرو بن العاص منذ ١٣٥٠ سنة.

ان لبنان الظالم للعروبة المظلوم من العرب لا يستطيع أن يتظلم من

الاهمال العربي ما دام بعض زعمائه السياسيين يؤكدون قدرتهم على افشال أو منع أي حل لقضية الشرق الأوسط على حساب سياستهم الوطنية، وما داموا رافضين الاعتراف بمسؤولية بعض اللبنانيين عن العنف البشع الذي انفجر طوال السنوات الطويلة الماضية وما زال ينفجر حتى هذه اللحظة.

أن تكرار القول ـ الى درجة غسيل دماغ شعب بكامله ـ ان لبنان كان ضحية حروب الآخرين على أرضه، فيه استغباء للعالم المفتوح الأبواب اليوم على بحر لا ينضب من المعلومات والأخبار والأفلام والوثائق. فهذه الحرب كانت لا تتم لو ان اللبنانيين لم يكونوا اداة أساسية مسببة لها. ان أية قوة خارجية، مهما بلغت عظمتها، لا تستطيع ان تفعل شيئاً في دولة اخرى لو أن لدى تلك الدولة المناعة الوطنية الكافية.

امام هذه المواقف اللبنانية لا بد من أن يتساءل أي مواطن عربي، حريص على بعض الدقة التاريخية والأمانة القومية، عن مدى التشويه الذي أصاب التفكير السياسي اللبناني وعن فداحة الخسارة التي تواجه كل العرب القوميين والمؤمنين بلبنان بلداً مميزاً ديمقراطياً ليبرالياً لا مقراً ولا ممراً للاستعمار ولا للصهيونية، عربي الوجه والضمير واللسان والمصلحة، متعدد الثقافات، شمولي التطلعات، مختلف القسمات. وعن عمق الكارثة إذا استمر هذا المنحى في السيطرة على اتجاهات السياسة اللبنانية، بحيث يصبح من المستحيل ترميم هذا الشرخ القومي في القلب الوطني اللبناني. وعن مبلغ الحزن المرعب الذي يشعر به أي عربي من جراء هذا الكلام الساذج والخطر معا.

لكن السؤال الآن هو: كيف يمكن التوصل الى اسقاط المدرسة الاسرائيلية بالتفكير السياسي اللبناني. فلا يمكن للمدرسة هذه من أن تسقط الا عند التأكيد نهائياً على عروبة لبنان. وان لا دور للبنان اطلاقاً خارج محيطه العربي وانتماءاته العربية. وهذا التأكيد ليس موقفاً عاطفياً بل موقف واقعي وتاريخي ومصلحي. وعودة الابن الضال الى حضن العروبة ـ على ما فيها من تمزق وانكسار وعفن وتخلف ـ هي الأهم اليوم. فعودة لبنان الى العروبة ليس فيه تمنين ولا معروف. بل العكس.

والعرب هم الشاكرون عندما يعود لبنان ليلعب دوره التاريخي في الحركة القومية العربية، ويضفي عليها ما يحييها ويجدد شبابها ويحرك حيويتها ويطلق عنانها. فالعروبة لا يمكن ان تتحمل خسارة لبنان، فالرهان عليها كبير.

ان من حق لبنان ان يمارس كامل سيادته عل كافة أراضيه. ومن حق لبنان ان يصادق أو يعادي الجهة التي يعتقد ان مصلحته معها. ولكن مصلحة لبنان هي دائما مصلحة العرب المشتركة. ومن حق لبنان المستقل السيد الحر ان يختار النظام الذي يريد. ولكن كم فادحة هي الخسارة، عندما يشدد لبنان اليوم على هوية مواطنيه وأبنائه في وجه «الغرباء» العرب المتواجدين على ارضه، بينما هو ما زال محتاراً في هويته. وكأن لبنان يملك خياراً بأن يكون غير عربي.

كم ظالم هذا اللبنان للعروبة وكم هو مظلوم من العرب.[٤٦]

هوامش

(٤٦) رياض نجيب الريس - «لبنان مظلوم من العرب وظالم للعروبة» - المستقبل» - ١٩٨٥/٩/٢٤.

٩

الحياد بين لبنان وسورية

«يفهم الجميع أن سورية ولبنان بلدان شبيهان بانكلترا وايرلندا، والولايات المتحدة وكندا: الجغرافيا والتاريخ يحتمان أن تكون العلاقة بينهما حميمية وصعبة».

ـ الايكونومست ـ
(١٠/١٢/١٩٨٣)

«بحبك يا لبنان !»

مع الاحترام الشديد للمطربة الكبيرة فيروز وصوتها الرخيم، ومعها مجموعة من المطربين اللبنانيين الذين أمطرونا خلال العشرين سنة الاخيرة بأغان عن العشق للبنان، فانها ساهمت بأغنيتها هذه بقدر ما ساهموا هم ضمن مجموعة أخرى لا تحصى من الأغاني، في تحقيق المقولة الشهيرة: إن من الحب ما قتل. لقد قتل لبنان من كثرة حب اللبنانيين له. وقد لا يحيا لبنان إلا اذا اقتنع اللبنانيون بأنهم لو أحبوا لبنان بأنانية أضيق وأفق أوسع لبقي لبنان لهم.

من يحب لبنان أكثر يا ترى ؟ الأميون والجهلة من اللبنانيين الذين أمعنوا ذبحاً بلبنان منذ ما يزيد عن ثلاث عشرة سنة لأنهم أرادوه على شاكلتهم ومنطقهم، فجرّوا وراءهم عن طريق العنف والإرهاب الآلاف المؤلفة من اللبنانيين الذين لا يشاركونهم هذه النظرية.

أما العاديون العقلاء من اللبنانيين الذين أدركوا أن لبنان ليس «قطعة سما» ـ على حد تعبير المطرب وديع الصافي ـ بل انه قطعة أرض لها تاريخ وجغرافيا وجيران وحلفاء وأصدقاء ومصالح وأعداء وارتباطات، وأن فيه طوائف ومللا وعشائر وأحزابا وأفرادا، وأنه ليس أزليا سرمديا أبديا، بل إنه ككل دول العالم فيه شعب يزداد وينقص، ويختلط، وله مصالح ترتبط بثوابت التعامل الجغرافي والتاريخي بقدر ما تتغير الظروف السياسية التي فرضتها.

هؤلاء العاديون العقلاء من اللبنانيين الذين أقحمهم الأميون والجهلة في أتون هذه الحرب الأهلية التي لم يعرف القرن العشرون حرباً في

شراستها وغبائها وجاهليتها، هؤلاء يحبون لبنان ـ في تصوري وتصور الكثيرين ـ أكثر بكثير لأنهم يعرفون بطريقة العواطف الأبوية أن حب الوطن أرقى وأشمل أنواع الحب، لذلك فهو أرحب من الحب الذي يولده التعصب والغيرة والتسلط. اذ لا حب بالإكراه مثلما لا دين بالإكراه، ولا حتى وطن.

ليعـذرني مستمعو الأغاني اللبنانية إذا كنت قد جرحت أحاسيس الطرب الوطني الذي يمتلكهم خاصة ان أكثرهم يشعر هذه الأيام بحاجة الى أن يقيم كربلاء لبنانية عند سماعه كل صيحة آه، انتقاماً لعواطفه المشتتة وتعبيراً عن عجزه العاطفي وربما تفريجاً عن كربه الوطني.

إن مدخـلي الى هذا الموضوع يعود الى كثرة العواطف الوطنية التي تفيض هذه الأيام عند بعض اللبنانيين بمزايدات مضحكة ومنكرة في آن واحد معاً، وهم شركاء أصيلون في الجرائم التي ترتكب يومياً على الأرض اللبنانية، الجرائم الشخصية والجرائم الوطنية.

إذا سمـح لنـا التاريخ أن نتمسح بأعتابه قليلا، تكفيراً عن هؤلاء الجهلة والأميين، لأدركنا أن ما يحدث في لبنان اليوم، ليس إلا امتداداً لما حدث قبل ١٤٠ سنة، ولو قرأ أو راجع أو اتعظ اللبنانيون من أحداث القرن الماضي لما كان لبنان ينزف اليوم وهو يشارف على الاحتضار.

لا أريد أن أكرر القول بأن التاريخ يعيد نفسه، ولكن اذا كان التاريخ دليلنا في هذه المرحلة وسوابقه مؤشرات للاحقه، لاتضح لنا أن الحرب الأهلية اللبنانية الأولى بين الموارنة والدروز بدأت سنة ١٨٢٠ ثم أعيدت عام ١٨٤٠ واستمرت الى سنة ١٨٦٠. أربعون سنة كاملة مضت قبل أن يتوصل لبنان الى صيغة أو شبه صيغة وطنية كيانية استمرت بين مد وجـزر طوال قرن من الزمن. والحـرب الأهليـة اللبنـانية الثالثة التي نعـاصرهـا اليوم والتي بدأت عمليا سنة ١٩٧٥ (١٩٥٨ كانت الحرب الأهلية الثانية)، اذا كانت السوابق التاريخية أمراً يُحتذى به فستطول عشرين سنـة أيضاً. لذلك، ومن دون أية سخرية مُرّة، علينا أن ننظر بارتياح الى سنة ١٩٩٥ لعلها تكون سنة الفصل.

مسرح المعـارك اليـوم هي الأرض نفسهـا التي دارت عليهـا حرب

١٨٦٠. هذا المسرح وهذه الأرض لم يتعلم لبنان منها درساً واحداً. سنة ١٨٤٠ وقعت الحرب الأهلية عندما انسحب المصريون بقيادة ابراهيم باشـا من لبنـان بضغـط بريطاني بعد أن خسروا تأييد فرنسا. وعاد الأتراك العثمانيون الى لبنان. وخلال السنوات العشر من حكم ابراهيم باشا أعطى المصريون الموارنة والمسيحيين حقوقاً متساوية مع الدروز والمسلمـين وجعلوهم غير خاضعـين لاقـطاع المشـايـخ الدروز. وطوال العشرين عاما التي تلت احتدمت المعارك وساد القتال بين الموارنة من جهة وبين الدروز بزعامة سعيد بك جنبلاط من جهة ثانية، حتى وصلت الى ذروة العنف في مذبحة ١٨٦٠.

سنة ١٨٦٠ تدخلت فرنسا لحماية الموارنة وبريطانيا لحماية الدروز. لكن فرنسا بموافقة الدول الأوروبية الكبرى وبناء على اتفاق بينها وضع في باريس قامت بإرسال حملة عسكرية فرنسية احتلت جبل لبنان. وقد استمر الاحتلال الفرنسي سبعة أشهر. وكانت بريطانيا حريصة على ألّا تنفـرد فرنسـا بالكسب من هذا الموقف فدفعت بالقضية الى المستوى الدولي وأرسلت الدول الكبـرى الخمس لجنـة تحقيق الى لبنان لبحث قضية المذابح على أن تقدم توصياتها حول ادارة لبنان.

ووصلت اللجنـة الدوليـة في ٢٦ أيلول ١٨٦٠ وبناء على مقترحات اللجنة الدولية قام ممثلو الدول الخمس بالاتصال بالباب العالي ووضعوا نظاماً خاصاً لحكم لبنان عرف باسم متصرفية لبنان، قوامه الحكم الذاتي للبنـان على أن يحكم من قبل حاكم مسيحي غير لبناني يختاره الباب العالي بالتشاور مع الدول الأوروبية الخمس.

وعندما وقع الغزو الاسرائيلي على لبنان في حزيران ١٩٨٢، أصبحت القوة المتعددة الجنسيات المؤلفة من الأميركيين والفرنسيين والإيطاليين والانكليز التي وصلت الى بيروت للفصل بين القوات المتحاربة والإشراف على انسحاب الفلسطينيين والسوريين اعادة منقحة للجنة الدولية التي وصلت قبل ١٢٣ سنة لحماية القوات الفرنسية. وقام الأميركيون، هذه المـرة، بدور الفـرنسيين في الماضي والفرنسيون بدور البريطانيين. أما الطليان والانكليز فقاموا بدور الروس والنمساويين والألمان في القرن

الماضي.

وظل اللبنانيون طوال المئة سنة الماضية يتصرفون بعقلية المتصرفية التي لا ترتاح إلا الى الحاكم الاجنبي الذي تحميه قوات خارجية. المقارنة مفجعة أليس كذلك؟

وحتى لا نغوص بعيداً في متاهات التاريخ لا بد من التوقف برهة عند مقطع في كتاب معروف لكولونيل انكليزي اسمه تشارلز هنري تشرشل أرّخ لحرب ١٨٦٠ يقول فيه:[٤٧]

«لو أخذت كل الاعتبارات العادية بعين المراعاة أو على الأقل لو ظهرت بعض المرونة تجاه الدروز لكان من الممكن من دون شك القيام بترتيب سياسي ما يوافق عليه السلطان والدول الأوروبية. لكن من المؤسف أن شخصية وأسلوب الحاكم الجديد للموارنة (الأمير بشير بن شهاب) الذي عيّنه الأتراك، كان يثير خواطر الدروز الى درجة ألْهَبَت عداءهم مذكرة إياهم بما نالوه بالماضي من ذل، وما يتوقعون أن تكون عليه معاملتهم بالمستقبل».

طبعاً لا الرئيس أمين الجميل اليوم هو الأمير بشير ولا وليد جنبلاط هو سعيد بك جنبلاط، ولا هما يريدان أن يعيدا تمثيل التاريخ. لكن التساؤل المُلِح وسط أيام العنف العصيبة هذه هو: لماذا يصر كل حاكم ماروني في لبنان على أن يرتكب الخطأ التاريخي الذي يتكرر عهداً وراء عهد وهو مداراة المسلمين خارج لبنان وتجاهل المسلمين داخل لبنان. فلو كسب هذا الحاكم ثقة المسلمين اللبنانيين لما احتاج للسعي الى كسب رضى المسلمين خارج لبنان. فالحاكم الماروني ما زال يريد أن يرضي السعودية وسورية والعراق وليبيا قبل أن يرضي السُنة والشيعة والدروز من اللبنانيين.

ولو رضي هؤلاء المسلمون اللبنانيون بحكم ذلك الحاكم لما لجأوا هم الى السعودية وسورية مثلاً طلباً للحماية ولا هو لجأ الى هذه الدول يطلب العون منها ضد مواطنيه، لو كان هذا الحاكم جاداً فعلاً في المشاركة في السلطة وفي قيام لبنان تعددي مستقل وموحد.

ان ما كتبه الكولونيل تشرشل عن لبنان قبل ١٢٠ سنة ما زال

صحيحاً عندما قال:

«ما لبنان في الواقع إلّا نواة تلتقي فيها العشائر من جباله المختلفة. فاذا ما قيّض لسكانه أن يتحدوا معاً بروابط من الثقة المشتركة وروابط من الألفة، فان الخطر على سيطرة الباب العالي سيكون كبيراً».

لكن، كما يردف الكولونيل تشرشل قائلاً: «من المؤسف أن الغيرة والكراهية التي تعمر صدور هؤلاء اللبنانيين قد منعت تحقيق هذا الأمر».

إن القضية اللبنانية من الأهمية بمكان بحيث يجب ألا تُتْرَك للبنانيين وحدهم، فهي كالحرب التي قال عنها كليمنصو انها أخطر من أن تترك للجنرالات والعسكريين. وبالتالي فان الهدف من التعامل التاريخي مع الأحداث السياسية المعاصرة والخروج بمقارنة تذكر الكثيرين بأن الإمساك بخيوط الحاضر يتطلّب إدراك مدى امتدادها الى الماضي ومدى استمرارها واختلاطها بالمعطيات التي نعيشها ونحاول تفسيرها بردها الى أصولها.

وقد اخترت رواية حادثة من التاريخ السوري - اللبناني المشترك لأذكّر بمدى تلاحم هذا التاريخ، وبأنه ليس هناك جدار عازل للبنان عن سورية، لا في الماضي ولا في المستقبل.

لذلك لا بد للعودة الى بعض التاريخ. والعلاقة السورية - اللبنانية كانت وما زالت وستبقى أسيرة هذا التاريخ، مهما حاول غلاة التعصب اللبناني أن يفتعلوا تاريخاً غير علمي خارج اطار هذه العلاقة. هذه العلاقة التي لا فكاك منها محكومة أيضاً بالعامل الجغرافي الذي هو الأساس في تكوينها وتطورها وتشكيل خصائصها. واذا كان من الممكن التلاعب بالتاريخ فمن الصعب جداً تجاهل الدوافع الجغرافية في القرار السياسي الذي على أساسه تحدد العلاقات عادة بين الدول. فالوحدة التاريخية - الجغرافية هي من ثوابت التعامل بين سورية ولبنان.

في شباط ١٩٣٣ أدلى غبطة بطريرك الموارنة بحديث الى جريدة «المقطم» المصرية إبان المفاوضات التي كانت جارية آنذاك بين المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان المسيو بونصو وبين الحكومة السورية تعقيباً على بيان كان قد أدلى به بونصو أمام لجنة الانتدابات

في عصبة الأمم، ذكر فيه أن لبنان بين البلدان التي قبلت الانتداب بطيبة خاطر وذلك لاختلاف مذاهب سكانه، بعد أن كان بونصو قد سرد للجنة إحصاء سكان لبنان وقال لهم إن جميعهم من الأقليات التي لا يمكن لواحدة منها أن تسود الأخرى. وقال بطريرك الموارنة لمراسل «المقطم» في بيروت ما نصّه:

«نعم نحن قبلنا الانتداب بطيبة خاطر. أما الأقليات والأكثريات وقولهم فينا فلا يَعنينا، فلبنان وطن مسيحي».

لكن مراسل «المقطم» عاد وسأل غبطة البطريرك:

«لكن السوريين يا صاحب الغبطة يتشبثون بإرجاع الأجزاء التي ألحقتها فرنسا بلبنان إلى سورية»، فأجابه البطريرك: «ومتى كانت سورية ممتلكة لهذه الأجزاء وسلبناها منها؟ إن هذه الأجزاء هي أصلاً للبنان وقد سلبت منه في الأزمان الماضية، فإذا استعادها إليه فقد استعاد ما هو ملكه واسترد ما هو حق له. ألم يكن لبنان ممتداً حتى أنطاكية وحتى عكا وما وراءها؟»

فقامت قيامة السوريين على هذا الحديث. فكُذِّب الحديث ثم نُفي ثم أُكِّد إلى أن أصبح من المحطات الفارقة في العلاقات السورية اللبنانية على الرغم من نفيه وتأكيده في آن واحد معاً واستمرار الأخذ والرد فيه الى نهاية الانتداب.

وجاء حديث البطريرك في الوقت الذي كانت فيه سورية تفاوض الفرنسيين على إلغاء الانتداب وتنظيم قضية المعاهدة السورية ـ اللبنانية المقترحة. وردّ السوريون على الشق السياسي في حديث البطريرك اللبناني بقولهم إن سورية الآن في موقف سياسي دقيق أقل ما يقال فيه أنه موقف تصفية بين سورية وفرنسا من جهة وبين سورية والبلاد التي سلخت عنها من جهة ثانية. وما دامت قضية المعاهدة أو إلغاء الانتداب ستطغى على البحث في هذه الأيام، فإن من حق سورية أن تعلم: هل البلاد المسلوخة عنها عقب الاحتلال الفرنسي هي بلاد سورية وسكانها سوريون يجب المطالبة بها وإعادتها اليها، أم انها أخرجت نهائياً من الجسم السوري وأصبحت الى الأبد بلاداً لبنانية

متممة للوطن اللبناني الذي يقول عنه غبطة البطريرك انه وطن مسيحي.

هنا كتب نجيب الريّس صاحب «القبس» الدمشقية: «هذا سؤال نلقيه على الفرنسيين الذين اقتطعوا هذه الأجزاء السورية بقوتهم وضمّوها الى لبنان رغماً عن أهلها. وسؤال نوجهه الى المفاوض السوري الذي تقدم الى المفاوضة باسم سورية ذات القضية الوطنية التي تعرض اليوم على التصفية النهائية لنعلم كيف يكون موقف هاتيك الأجزاء من الوطن السوري. وهذا السؤال نفسه نوجهه الى سكان هاتيك البلاد الذين ضموا الى لبنان بغير ارادتهم والذين لم يقولوا ساعة واحدة لا بالانتداب ولا بلبنان»[٤٨].

وفنّدت الصحافة السورية في حينه مقالات كثيرة وطويلة وعلى امتداد أيام قول البطريرك اللبناني بأن الأجزاء السورية هي أصلاً للبنان وسلبت منه. ومما قالته «القبس»: «لستم أنتم يا سيدي الذين سلبتم هذه الأجزاء من سورية وألحقتموها بلبنان.. بل هم الفرنسيون أصحاب الأساطيل والجيوش والمدافع. فأنتم لستم الآخذين بل أنتم المأخوذ لكم».

أما على الشق الديني من حديث بطريرك الموارنة فكان رد سورية أكثر قساوة. فكتب نجيب الريّس في «القبس» يقول: «كنا نتمنى أن لا يكون غبطته صاحب هذا الحديث الذي يتناول قضيتنا الوطنية والقومية في الصميم لأننا نحن في الشام لا نعرف ولا نريد أن نعرف ولا نقبل أن يعرفنا أحد بأن سكان دمشق غير سكان طرابلس وأهل حلب غير أهل اللاذقية وأبناء حماة غير أبناء النبطية وبعلبك، فجميع هؤلاء سوريون عرب يطلبون الوحدة والاستقلال ويرفضون الانتداب». وأضاف: «اذا كان اللبنانيون الذين تكلّم بلسانهم صاحب الغبطة لا يريدون هذا التحرر فهم أحرار. ولكن سكان طرابلس وصيدا وصور وجبل عامل وبعلبك والبقاع الذين لم يقبلوا بالانتداب من قبل والذين يريدون أن يتحرروا من نيره ويطلبون أن يؤلفوا مع إخوانهم هنا دولة سورية واحدة، إن هؤلاء لا يستطيع صاحب الغبطة أن يتكلّم بلسانهم ولا أن يقول بالنيابة عنهم ان لبنان قبل الانتداب عن طيب خاطر. وغبطته له ملك

الحق في أن يقبل الانتداب باسمه.. أما أن يقبله باسم رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وعمر الداعوق وغيرهم... فهذا كثير وعجيب ومدهش.. ان لبنان ليس وطناً مسيحياً أو إسلامياً بل هو وطن للجميع»[٤٩] .

وفي أيار ١٩٣٥ أدلى غبطة البطريرك الماروني نفسه بحديث صحافي تعقيباً على تعليق خرجت به صحيفة فرنسية اسمها «لاديبيش نوفيل» سخرت فيه من تقارب الوطنيين في سورية والموارنة في لبنان اثر شبه اتفاق اقتصادي تم بين البلدين، وسمت هذا التقارب من الوطنيين السوريين أزهاراً مسمومة يقدمونها لغبطة البطريرك ليخدعوه ويستغلوا نفوذه. وقال البطريرك اللبناني في حديثه الصحافي: «اننا نقبل هذه الأزهار من السوريين سواء أكانت مسمومة أو كانت نقية، لأن هذا أمر يعنينا وحدنا»، ثم تساءل بلهجة ملؤها الألفة والتقريع: «وماذا يضر الآخرين ان اتفقنا ؟ ان قضية اتفاقنا مع السوريين ليست قضية أزهار مسمومة بل هي قضية مصلحة أو مصيبة جمعتنا».

وفي خلال سنتين خرج السوريون عبر صحافتهم، وكانت في حينه من أكثر الصحافات العربية حرية في التعبير وفي تعدد وجهات النظر، يرحبون بحديث البطريرك اللبناني ويؤيدون موقفه ويقولون بأنهم اذا أيدوا موقف البطريرك اليوم فلا ينكرون انهم لم يكونوا كذلك بالأمس، وان هذا الاعتراف الصريح منهم هو أكبر دعامة في اتفاقهم لأن الذين يعرفون لماذا كانوا يختلفون يعرفون ايضاً لماذا غدوا يتفقون. فاذا فرقتهم أحقاد الماضي وسياسة الماضي فقد جمعتهم اليوم مصيبة الحاضر ومصلحة المستقبل.

وليس عجباً ـ كما ذكرت «القبس» الدمشقية ـ أن يتحد المسلمون والنصارى في هذا الوطن المشترك أو الموارنة في لبنان والوطنيون في سورية، ولكن العجيب أن يتأخروا في هذا الاتحاد الصريح الواضح حتى اليوم وهم يعلمون انهم مرغمون على ما توجبه المصلحة ويفرضه حب البقاء.

وتساءلت الصحيفة: «لماذا كانوا يتهموننا بالتعصب يوم كنا مختلفين

ولماذا كان جوابهم ان هذه البلاد لا تستحق الاستقلال إلا أن تزول منها الفوارق المذهبية، حتى اذا اتفقنا اليوم راحوا يعجبون من اتفاقنا ويحاولون تلغيمه. لقد أثبتنا باتفاقنا على المطالبة بسيادة بلادنا وحريتها وتخفيف الأعباء المالية عن كواهل أهلها ان اختلاف المذاهب لا يمنع الاتفاق، وانه ليس ضروريا أن تزول هذه الفوارق حتى نعيش مع بعضنا في وطن: نحن أهله ونحن أصحابه الشرعيون. فالمسلم يظل مسلماً، والمسيحي يظل مسيحياً والوطن يبقى للاثنين ما دامت مصلحة سورية في سيادتها وفي اقتصادياتها وفي ثروتها هي نفسها مصلحة لبنان»[٥٠] .

بعد حوالي تسعة أشهر من هذا الاتفاق ومن التصريح البطريركي مشت سورية الى بكركي في كانون الثاني ١٩٣٦، لتهنىء بطريرك الموارنة في لبنان بعيده. وكتب نجيب الريس افتتاحية له يقول[٥١] :

«هذه أول مرة تمشي فيها سورية من دمشق الى لبنان لا للنزهة ولا للتجارة بل لتدشين عهد طالما بقينا عليه وطالما نادينا به، وطالما قلنا انه الوسيلة الوحيدة الناجحة لخلاصنا جميعاً. فاذا بهذا العهد الذي نشدناه طويلا وأخفقنا في الوصول اليه كثيراً يدشن في بكركي وعلى باب كنيستها وأمام هيكل المسيح، بعد أن دشن في الجامع الأموي وعلى باب محرابه والى جانب ضريح النبي يحي فالتقى يوم الأحد الماضي أصحاب العهدين وتصافحت أكف البلدين، ونفست زفرة الصدرين بالألم المشترك والمصيبة الواحدة ونادى سيد لبنان بصوته الداوي بالحرية وبطلب الخلاص. وصاح خطيب سورية ونائبها والمتكلم بلسانها ان دماءنا ودماءكم أيها اللبنانيون المارونيون قد سالت للدفاع عن هذه البلاد وعلى أرض الوطن الواحد وعلى ضفاف العاصي منذ مئات السنين. أجل لقد التقت سورية ولبنان على أعواد المشانق في عهد جمال باشا كما التقت دماؤنا على ضفاف العاصي في عهد الغزاة الرومانيين... واليوم نلتقي من جديد في صعيد واحد وفي بكركي... في سبيل الألم الذي وحّد في قلوبنا، وفي سبيل هذا النير الثقيل الذي يحز في أعناقنا، نلتقي لنطلب الحرية وننشد الخلاص...».

ما على القارىء المعاصر اذا أراد تقريب ما قرأه الى أحداث اليوم، إلا

أن يستبدل التواريخ وبعض الأسماء والقليل من الكلمات. وأهمها أن يستبدل كلمة فرنسا بكلمة اسرائيل أو أميركا وكلمة الانتداب بالاحتلال الاسرائيلي وكلمة معاهدة بكلمة اتفاق، فتتضح الصورة بما هي عليه اليوم من غير لُبس ولا غُموض.

في غمرة الاشكاليات اللبنانية الكثيرة، يدعو بعض السياسيين اللبنانيين الى حياد لبنان، متشبهين بالحالة النمساوية بالذات، بعد أن استحالت الحالة السويسرية. وهنا يجب العودة أيضاً الى شيء من التاريخ، ومقارنة الوضع اللبناني مع وضع النمسا قبل وبعد الحرب العالمية الثانية.

في شباط ١٩٣٤ وقعت الحرب الأهلية في النمسا عندما رفع الديموقراطيون الاجتماعيون السلاح في وجه حكومة دولفوس اليمينية المحافظة التي عطلت الدستور والغت البرلمان وحكمت بواسطة القوانين الاستثنائية. وكان هتلر في ربيع ١٩٣٣ قد استلم السلطة في المانيا. وفي تموز ١٩٣٤ اغتال النازيون دولفوس وحاولوا استلام الحكم. لكن الظروف الدولية في حينه حالت دون ذلك. واكتفى هتلر باعلان النمسا «دولة المانية» بادئاً عملية التخريب الداخلي ومعلنا التغلغل النازي داخل الحكم النمساوي. ومع تغير الظروف الدولية احتلت المانيا النازية النمسا في آذار ١٩٣٨، معلنة وحدة الدولة الالمانية الكبرى التي عرفت باسم «انشلوس». وأجرت المانيا النازية استفتاء في النمسا والمانيا (الدولة الكبرى) فاز فيه هتلر بأكثرية ٩٩ بالمئة من الأصوات وابتلعت المانيا النازية النمسا المستقلة.

في نيسان ١٩٤٥ احتل الحلفاء النمسا بعد هزيمة المانيا، وسمحوا لها باعلان حكومة نمساوية مؤقتة من الديموقراطيين الاجتماعيين والاشتراكيين المسيحيين والشيوعيين، عندما حررت القوات السوفياتية العاصمة فيينا. وكان الحلفاء (الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا) قد اعلنوا سنة ١٩٤٣ قبل نهاية الحرب بأنهم سيعيدون استقلال النمسا بحدودها كما كانت سنة ١٩٣٧. وكان الحلفاء قد جزأوا النمسا الى أربعة قطاعات لكل دولة قطاع. وبعد مؤتمر

بوتسدام سمح الحلفاء بإجراء انتخابات نيابية استبعد منها فقط النازيون، وفازت فيها احزاب: الشعب النمساوي (الذي كان مشابهاً للمسيحيين الاشتراكيين في المانيا)، الاشتراكيون، الديموقراطيون الاجتماعيون، وأربعة شيوعيين فقط، شكلت بعدها حكومة وطنية ائتلافية أقامت أول حكم دائم بموجب دستور ١٩٢٠ تحت الاحتلال الأجنبي للحلفاء. وكان أول عمل لهذه الحكومة انها حدت من تدخل الحلفاء في الشؤون الداخلية للدولة النمساوية.

وظلت النمسا محتلة من الدول الأربع الكبرى حتى سنة ١٩٥٥. وعند انعقاد مؤتمر السلام الشهير في برلين سنة ١٩٥٤، بين وزراء خارجية فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، أدخلت النمسا فيه كشريك كامل. لكن فشل وزراء خارجية هذه الدول في الاتفاق على مستقبل المانيا عطل حظ النمسا في الجلاء. فالاتحاد السوفياتي لم يكن راغباً بالانسحاب من الاراضي النمساوية ما دام لم يتم «تحييد» المانيا بالشكل الذي يريده.

لكن الاتحاد السوفياتي فاجأ الحلفاء بدعوة الحكومة النمساوية الى موسكو لاجراء محادثات ثنائية في نيسان ١٩٥٥، حين تم الاتفاق على اعلان يتم بموجبه انسحاب القوات السوفياتية من كل الاراضي النمساوية معيدة السيادة النمساوية إليها مقابل وعد النمسا بإعلان حيادها الدائم. ووقعت معاهدة الجلاء في ١٥ أيار في فيينا من قبل الدول الأربع المحتلة، التي أعادت قيام الجمهورية النمساوية بحدودها الكاملة ما قبل ١٩٣٨، «دولة ديموقراطية مستقلة ذات سيادة». وتم انسحاب الحلفاء بين ٢٧ تموز ١٩٥٥ و ٢٥ تشرين الأول. وفي ٢٦ تشرين الأول أعلنت الجمهورية النمساوية أنها دولة حيادية دائمة.

هنا يجدر الانتباه الى أربعة أمور:

□ الأول: ان الحكومة النمساوية عندما وافقت على مبدأ الحياد الدائم، لم تترك أي شك لدى الاتحاد السوفياتي والفرقاء الآخرين، ان الحياد النمساوي يعني الحياد العسكري فقط، لا الحياد العقائدي، أي ان النمسا دولة غربية بانتمائها، ذات اقتصاد مختلط رأسمالي النزعة،

ونظام ديموقراطي يقوم على البرلمانية وتعدد الأحزاب مع مشاركة كاملة في كل المنظمات الدولية.

□ الثاني: ان النمسا ظلت عشر سنوات كاملة تحت الاحتلال الاجنبي، وتحت «السيادة المشتركة» ـ القانونية والواقعية ـ لاربع دول. وكان السبب الرئيسي لاستمرار هذا الاحتلال هو عدم اتفاق الحلفاء على مصير المانيا بعد الحرب، وتصعيد ما سمي «بالحرب الباردة» بين الاتحاد السوفياتي والغرب طوال هذا العقد من الزمن. أي أن استمرار الاحتلال كان مرتبطاً بأمر خارج عن حدود وارادة النمسا، بقدر ما كان مرتبطاً بالتوصل الى حل شامل للقضية الاوروبية ومنها المسألة الالمانية توصلا للوفاق الدولي.

لذلك فان التوصل الى حل منفرد للوضع اللبناني قبل التوصل الى حل شامل لقضية الشرق الأوسط أمر بعيد الاحتمال. فالمسألة اللبنانية ما زالت قضية جانبية تنتظر وفاق الكبار حول القضية الرئيسية.

□ الثالث: ان الحياد اللبناني الدائم (تشبها بالحياد النمساوي) هو حياد بين العرب واسرائيل، بمعناه العسكري فقط، وليس حياداً بين بعض العرب وبعضهم الآخر. أي أن حياد لبنان لا يلغي انتماء لبنان العربي ولا هويته ولا نظامه التعددي الديموقراطي. فالحياد يجب ان لا يعني انحيازاً الى اسرائيل كما يجب أن لا يعني التطبيع وتحويل لبنان الى جسر اسرائيلي داخل العالم العربي. وعادة ما تضمن الدول الكبرى هذا النوع من الحياد (في هذه الحالة الدول الخمس الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن الدولي).

□ الرابع: توضح المقارنة اللبنانية ـ النمساوية أهمية العامل الجغرافي وتغلبه في أكثر الأحيان على المفهوم التاريخي للأحداث. فالخوف «الجغرافي» الذي كان لدى الاتحاد السوفياتي من جيرته لالمانيا، دفع النمسا الى الحياد، والاتحاد السوفياتي الى الانسحاب. بينما كان منطق التاريخ يفترض ان لا تقسم المانيا الى دولتين، شيوعية وديموقراطية، ولا ان تستقل النمسا عن الدولة الالمانية الكبرى. فالدول عادة تستطيع ان تختار اصدقاءها ولكنها لا تستطيع ان تختار جيرانها.

ان الفكرة الأساسية من فتح هذا الملف التاريخي، هي ان يفسح في المجال أمام المسألة اللبنانية لان تفك حصار الخبراء المحيطين بها والدعاة الملتزمين بها والمتعصبين المسكين بخناقها، وان يتاح لها تهوية أوراقها وفتح باب النقاش في أصولها وفروعها ومسبباتها في جو الحرية نفسه الذي علمنا أياه لبنان.

لعل ذلك كله لم يكن أكثر من بحث عن فرصة يمكن توفيرها «لغير اللبنانيين من اللبنانيين» ـ وهم في تقديري جيلان كاملان من رجالات العالم العربي ـ ليشاركوا الرأي في أخطر مسألة سياسية مرت في حياة هذين الجيلين.

هوامش

(٤٧) تشارلز هنري تشرشل ـ «الدروز والموارنـة تحت الحكم التركي من ١٨٤٠ إلى ١٨٦٠» ـ لندن ـ ١٨٦٢ ـ (مترجمة).
(٤٨) نجيب الريس ـ «لبنان وطن مسيحي (١)» ـ «القبس» الدمشقية ـ ١٩٣٣/٢/٢٠.
(٤٩) نجيب الريس ـ «لبنان وطن مسيحي (٢)» ـ «القبس» الدمشقية ـ ١٩٣٣/٢/٢٢.
(٥٠) نجيب الريس ـ «أزهار مسمومة» ـ «القبس» الدمشقية ـ ١٩٣٥/٥/٢٨.
(٥١) نجيب الريس ـ «أرض التعصب» ـ «القبس» الدمشقية ـ ١٩٣٥/١/١٥.

المراجع

افرام، فادي (١٩٨٥/٥/١٧) — «**نرفض أن يحظروا علينا ما يسمحون به للمسلمين والعرب**». جريدة النهار.

افرام، فادي (١٩٨٥/٦/١٧) — «**العالم الإسلامي تجاهل الأقليات والمسيحيون لا يريدون أن يطردوا**». جريدة النهار.

الأمين، محمد حسن (١٩٨٥/٩/٢٥) — «**الإسلام والمسيحية والتمزيق اللبناني**». جريدة النهار.

البنا، حسن — «**دعوتنا: مجموعة رسائل الإمام الشهيد**». القاهرة. طبعة دار الشهاب.

تشرشل، تشارلز هنري (١٨٦٢) — «**الدروز والموارنة تحت الحكم التركي من ١٨٤٠ إلى ١٨٦٠**». مُتَرجَم. لندن.

تويني، غسان (١٩٨٥/٣/١٩) — «**البحث عن جمهورية جديدة**». مجلة المستقبل.

الجابري، محمد عابد (١٩٨٥/٩/٢) — «**العرب والعروبة في المرجعية النهوضية**». مجلة اليوم السابع.

الجابري، محمد عابد (١٩٨٥/٩/٣٠) — «**العروبة والإسلام: لماذا الثنائية؟**». مجلة اليوم السابع.

حراس الأرز (١٩٨٥/٧/٢٦) — «**حراس الأرز يهاجم القليبي لدعوته إلى كونفدرالية عربية**». جريدة النهار.

حمادي، سعدون (١٩٨٥/١٢/٣١) — «**تجديد الحديث عن القومية العربية**». بحث قدم في ندوة «مركز دراسات الوحدة العربية» في بغداد. أيلول ١٩٨٣ ـ عن «**اللغة العربية والفكر القومي**». مجلة التضامن.

حنين، ادوار (١٩٨٥/٥/٢٧) — «**معوقات تعترض الحكم أولها غياب التوافق اللبناني**». جريدة النهار.

حنين، ادوار (١٩٨٥/٦/٣) — «**حنين يحذّر من عودة عرفات**». جريدة النهار.

حنين، ادوار (١٩٨٥/٦/١٥) — «**الدفاع عن القضية العربية لا يجعل من صاحبه عربي الهوية**». جريدة النهار.

خالد، خالد محمد (١٩٨٥/٨/٢٦) — مقال نشر في جريدة الأهرام.

الخالدي، طريف (١٩٨١) — «**المسيحيون العرب**» ـ اللاهوت المسيحي وعلم الكلام الإسلامي. بيروت. مؤسسة الأبحاث العربية.

خضر، جورج (١٩٨١) — «**المسيحيون العرب**» ـ المسيحية العربية والغرب. بيروت. مؤسسة الأبحاث العربية.

خضر، جورج (١٩٨٥/٤/٢٤) — «**اللبلد فصح ممكن؟**». جريدة النهار.

خضر، جورج (١٩/٥/١٩٨٥) **«رمضان والسلام»**. جريدة النهار.

خضر، جورج (٢٨/٥/١٩٨٥) **«من سن الفيل والمخيمات»**. جريدة النهار.

خضر، جورج (٨/٩/١٩٨٥) **«التمزيق اللبناني أمام الرجاء»**. جريدة النهار.

خضر، جورج (١٥/٩/١٩٨٥) **«من عيد الصليب الى عاشوراء»**. جريدة النهار.

خوري، الياس (١٩٨١) **«المسيحيون العرب»** ـ مقدمة الطبعة الثانية. بيروت. مؤسسة الأبحاث العربية.

خوري، الياس (١٤/٤/١٩٨٥) **«المسيحيون والمسألة اللبنانية»**. جريدة السفير.

الدوري، عبد العزيز (١٩٨١) **«القومية العربية والإسلامية»**. بحوث ومناقشات الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.

رباط، ادمون (١٩٨١) **«المسيحيون العرب»**. المسيحيون في الشرق قبل الإسلام. بيروت. مؤسسة الأبحاث العربية.

الريّس، رياض (١٩/٣/١٩٨٥) **«منطق التاريخ أم واقع الجغرافيا؟»**. مجلة المستقبل.

الريّس، رياض (٢٤/٩/١٩٨٥) **«لبنان مظلوم من العرب وظالم للعروبة»**. مجلة المستقبل.

الريّس، نجيب (٢٠/٢/١٩٣٣) **«لبنان وطن مسيحي»**. جريدة القبس الدمشقية.

الريّس، نجيب (٢٢/٢/١٩٣٣) **«لبنان وطن مسيحي»**. جريدة القبس الدمشقية.

الريّس، نجيب (١٥/١/١٩٣٥) **«أرض التعصّب»**. جريدة القبس الدمشقية

الريّس، نجيب (٢٨/٥/١٩٣٥) **«أزهار مسمومة»**. جريدة القبس الدمشقية.

زريق، قسطنطين (١٩٨١) **«القومية العربية والإسلام»**. بحوث ومناقشات الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.

زريق، قسطنطين (١٩٨١) **«المسيحيون العرب»**. بيروت. مؤسسة الأبحاث العربية.

سحاب، فيكتور (١٩٨٦) **«من يحمي المسيحيين العرب»** و **«العرب وتاريخ المسألة المسيحية»**. بيروت: الوحدة للطباعة والنشر.

سيف الدولة، عصمت (١٩٨٦) **«عن العروبة والإسلام»**. سلسلة الثقافة القومية (٢). بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.

شمعون، كميل (١٤/٨/١٩٨٥) تصريح له حول اتفاق شتورة الذي تم بين حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي مع

مجموعة من الأحزاب الأخرى في آب ١٩٨٥. جريدة النهار.

فضل الله، محمد حسين (٦/٩/١٩٨٥) حديث نشر في جريدة الشرق الأوسط.

القوات اللبنانية (٢/٦/١٩٨٥) بيان نشر في جريدة الشرق الأوسط.

كرم، سمير (١٩٨١) **«القومية العربية والإسلام»**. بحوث ومناقشات الندوة التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.

مطر، فؤاد (٢٧/٧/١٩٨٥) **«سورية في لبنان: استفادة من دروس التدخلات والمداخلات»**. مجلة التضامن.

هزيم، أغناطيوس الرابع (٦/٦/١٩٨٣) **«باريس: البطريرك هزيم في نوتردام يقترح عودة الاتحاد بين الشرق والغرب»**. جريدة النهار.

هزيم، أغناطيوس الرابع (١٦/٣/١٩٨٥) **«الأمل الوحيد هو المقاومة الوطنية اللبنانية»**. جريدة السفير.

فهرس الأعلام والهيئات

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

المسيحيون والعروبة

يفتح رياض نجيب الريّس في هذا الكتاب باب مناقشة عروبة المسيحيين وهوية اللبنانيين على مصراعيه، من خلال مناقشة مجموعة من الكتّاب والسياسيين المسيحيين اللبنانيين الذين اعادوا الجدل حول الوجود المسيحي والكيان اللبناني خلال سنوات الحرب الأهلية اللبنانية.

ويناقش المؤلف ظاهرة المارونية السياسية من مفهوم القومية العربية والوحدة العربية، في عصر أصبح التبشير بهما عملا محفوفاً بالمخاطر. ويدعو الكتاب بشكل مباشر الى التقاء صفوة الآراء من على كل المنابر، ومهما تعددت، الى العمل الفكري الراقي بكل اجتهاداته واحتمالات الخطأ والصواب فيه، لعله يمهد لعودة الروح الى الفكر القومي العربي لتكون بداية التنور ونهاية النفق المظلم الذي يمر به العالم العربي اليوم.

«المسيحيون والعروبة» كتاب يحاول ان يناقش هذا الوضع متسائلا عن أسباب الاستمرار الى اليوم في الجدل حول عروبة المسيحيين وهوية اللبنانيين، وخاصة في عصر الردة الدينية والطائفية وبعد ١٣ سنة من الحرب الأهلية اللبنانية.


1869844327